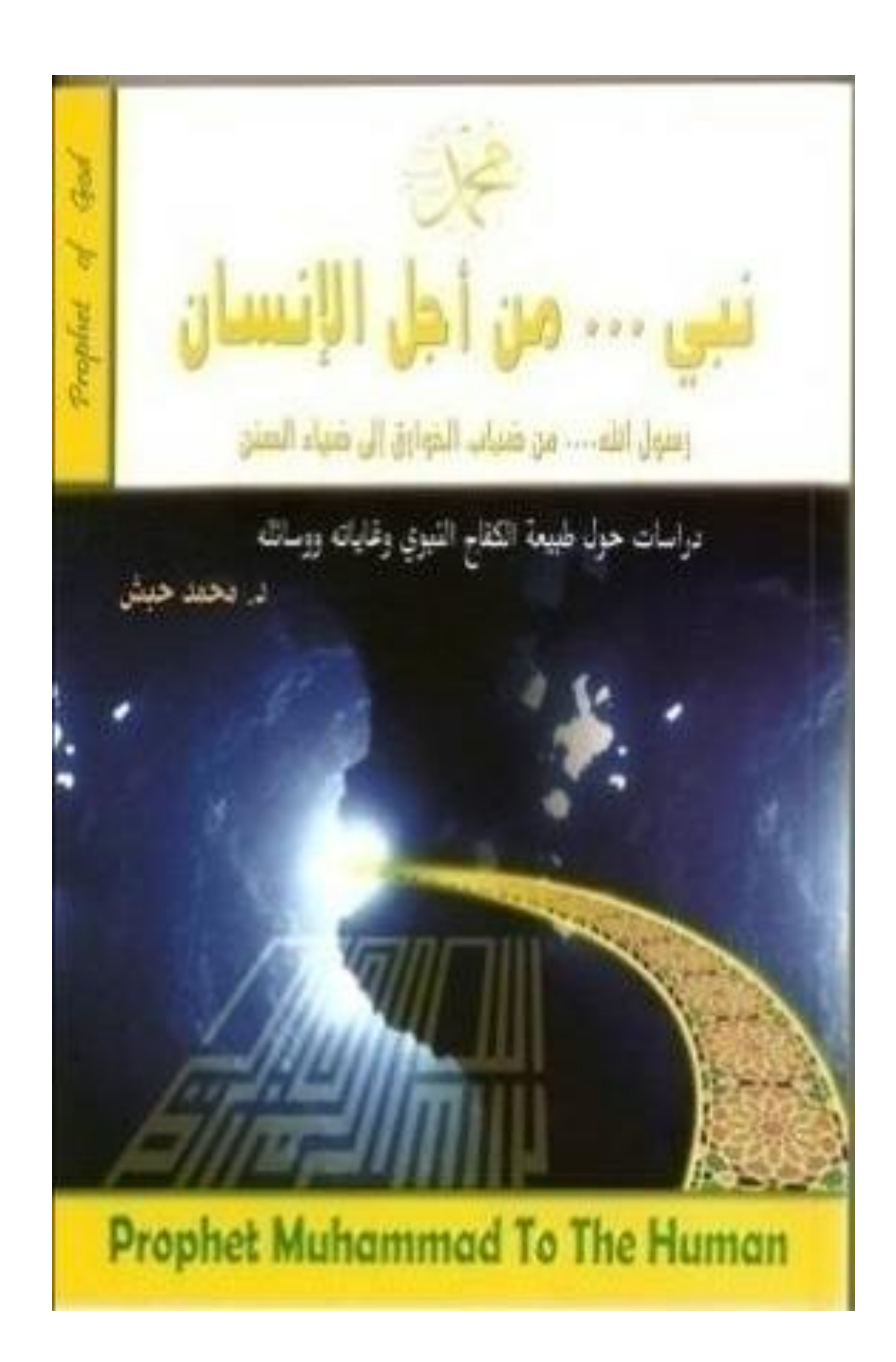


Prophet of God
محمد
نبي ... من أجل الإنسان
دراسات حول طبيعة الكفاح النبوي وغاياته ووسائله
د. محمد حبش
Prophet Muhammad To The Human

محمد صلى الله عليه وسلم

نبي ... من أجل الإنسان

رسول الله.... من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن

دراسات حول طبيعة الكفاح النبوي وغاياته ووسائله

محمد حبش

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً
أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً
أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء!! ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه!!
قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً

قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله
ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء
إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون

الأعراف 188

قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين

الأحقاف 9

أيها الصادق أشواقك في غارك العالي شفاء للقلوب
كنت تلقيها على سمع الدجى وتلقاها على جنح الغيوب

فلماذا ختمت انوارها رغم ما يشهده العالم هذا
ولماذا طويت أسرارها ولماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟؟

رسول الله..
من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن

أقدم للقراء الكرام هذه الصفحات التي كرستها للحديث عن كفاح النبي الكريم في بناء الحياة ونشر الهدى، وهي صفحات تهدف إلى التأكيد على بشرية الرسول الكريم، وهي حقيقة أكدها القرآن الكريم عشرات المرات، وهي صفحات قد تأتي على خلاف نسق ما تعودناه حول الرسول الكريم، من تلاوة مغازيه وسيرته وشفاعته ومنزلته في أولي العزم من المرسلين، ولكنها قراءات على هامش كفاحه، تكمل عطاءه وتوضح هديه وتنشر فكره وضياء رسالته.
وإذ أصدر هذه الصفحات فأنا سعيد أن أضمها إلى كتابي سيرة رسول الله الذي كتبته قبل عشرين سنة وأسعدني الله تعالى بأن يسر نشره في الآفاق حيث طبع منه على ما أعلم نحو

ثلاثين طبعة، إضافة إلى طبعات كثيرة غير مأذون بها، وتلقاه الناس بقبول حسن، وصار فاكهة طيبة على موائد الأعرس والأفراح، في عدد من بلدان العالم الإسلامي، كما صار مقرراً دراسياً في كثير من المعاهد الدينية في سوريا والأردن والإمارات العربية المتحدة.
قد تكون هذه الدراسة خارج السرب ولكنها ليست خارج سياق الرسالة، وبهذا المعنى فهي خارج سربنا نحن وليس خارج سربه هو، وهي صفحات غائبة، عادة ما نتجاوزها في سياق دراستنا لسيرة رسول الله، حيث نفضل الحديث عن مجده المعصوم، ونتهيب أن نقرأ دروس كفاحه على الأرض كثائر نبيل، يجوع يوماً فيحمد الله ويشبع يوماً فيشكر الله، ويصيب يوماً فيسأله هداه، ويخطئ يوماً فيستغفر لذنبه، ينتصر في بدر وينكسر في أحد، ويعتز في تاريخه باليومين جميعاً، وهي روح ناقدة لا بد أن تسلمك إلى مواجهة جدل يتناوبه العقل والنقل، ويقود إلى حقيقة واحدة وهي أنه ما كان بدعاً من الرسل وما يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء، وأنه ليس إلا البشير والنذير لقوم يؤمنون.

إن وقوفنا أمام معالم بشريته لن ينقص من وجهة نظري حبنا واحترامنا لمقامه المعصوم، بل إنه سيعزز الاحترام لعطائه ورسالته، فهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وما كان من قبله من المرسلين إلا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله عليهم من السماء ملكاً رسولاً.
إنها ليست قراءة علمانية لحقائق الغيب، ولكنها نصوص الكتاب العزيز نقدمها كما رواها صاحب التنزيل، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، وهي نصوص أشارت في 118 موضعاً إلى كونه بشراً يكافح على الأرض من أجل بناء الإنسان والحياة.

وفي كفاحه على الأرض كان يواجه قومه بحوار العقل، ولكنهم كانوا يطالبونه بالمعجزات، على ما هي عادة الشعوب الواهنة حين تبعث فيهم الأنبياء، ولكن سياق رسالته كان يتأبى على منطق الخوارق، فقد كان الرجل صاحب زند وجد، وكفاح وجراح، وكان يؤذن في البشرية بعصر جديد يحكم فيه العقل وتنسحب الخوارق، وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وفي مزيد من التفصيل يشرح له القرآن الكريم طبيعة رسالته: وآتينا ثمود الناقة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً.
قالوا له اخرق لنا الجبال وافتق لنا الأرض، فقال لهم وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، على سنة جده الخضر إذ قالوا اضرب بيننا وبين يأجوج ومأجوج سداً من عجائبك!! قال لهم: أعينوني بقوة .... هبوا انهضوا، آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً.

ومراراً كانوا يسألونه الخوارق، ويذكرونه بمواهب الأنبياء من قبله في هذا السبيل، ويسألونه: أنت نبي؟ لم لم تؤيدك السماء بمثل طوفان نوح ونار الخليل؟ أين هي عصا موسى منك؟ وأين هي كف المسيح؟ ولن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء علينا كما زعمت كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء زلن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه... إلى آخر القائمة الطويلة من المطالب والتحدي ولكن جوابه لم يكن يزيد عن كلمة واحدة: قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً!!

كانوا يسألونه بكل صيغ التحدي يطلبون منه آية من تلك التي أخبر بها عن تاريخ الأنبياء، كان الجواب صارماً: قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به !! ولو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم.

وحين كانت طبيعته البشرية تتألم للابتزاز كان يبسط يديه للسماء رجاء أن تأتيه عجائب الأنبياء من قبله، ولكن كانت السماء تضن عليه بذلك وتأمره مرة أخرى باستئناف الكفاح البشري،
وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون.
وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين.
إن الإيمان الذي يأتي بالخوارق يرحل برحيلها، ولا معنى لرسالة جاءت لإنقاذ البشرية أن تعتمد في براهينها على المخاريق والعجائب.
وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون.
وحين استيئس ذات يوم وأعرب بجرأة عن قناعته بضرورة مجيء المعجزات في كفاحه، على سنن من قبله من الأنبياء جاء القرآن بجواب غير متوقع ولا مألوف يتضمن تأنيباً شديداً: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون!!
إنها باختصار رسالة العقل، وهي آتية على غير نسق الأنبياء في الخوارق والعجائب، تحمل الناس إلى عصر المعرفة والعلم والنور.

هنا نجتهد أن نمشي إلى جواره ونستظل بظله الوارف ونرسم للعالم صورة النبي الكريم في كفاحه وجراحه، تقتدي به الشعوب المستضعفة في دربها إلى الحرية والكرامة:

إن أصنامي التي في معبدي مثلها تلك التي في معبدك
لم تحطمها يد غير يدي فترفع عن يد ليست يدك

هكذا اختار له الله مكانه بين الأنبياء ينطلق في خدمة العالم، يقرأ أسرار الكون ويبني على سنن الآفاق والأنفس، عماد رسالته العقل والبرهان، يلهب زفيره كفاح الأحرار، ويوري بزنده نار الفداء، تماماً كما ناجاه إقبال في جناح جبريل:

أنت من أطلقت من صدري صراخ الفجر بعثاً
لي من التوحيد نار تلهب العالم بحثاً
بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح
ذات شجو وحماس وندوب وقروح

إني أرجو أن تكون هذه الأوراق زادي يوم المبعث، أقدمها له صلى الله عليه وسلم يوم يكتب الله لنا اللقاء في العالم السماوي حيث لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعلمون

في ذكرى رسول الإنسانية

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

إنه موعد المصطفى، موعد السماء مع الأرض، موعد الأرض مع الربيع، موعد الأبدان مع العافية، موعد الحور والنور، لقاء العالمين بذكرى مولد رسول الله

حين اختار الله سبحانه مولد الرسول الكريم في الثاني عشر من ربيع الأول كان ذلك في العشرين من نيسان، ويا له من ربيع دافئ سعدت به بطحاء مكة حين دلف إلى الحياة يومذاك طفل من قريش ولد كما يولد الناس ومات كما يموتون، وما بين ميلاده وموته كانت المعجزة الباقية الخالدة، معجزة رسالة الإسلام.

دعني أقاسمك أيها القارئ العزيز بعض قراءتي لإشراقه وألقه، في نجوى وجواب نجوى.

إنه أحرق محرابه بزفرات ثورته، وكنت أحس لهيب المحراب ذاته كلما تطلعت في مجد كفاحه:

أيها الثائر في أوثانـــه　　　يملأ الأقدار طوفاناً وموجاً
أنا في الهيكل فامنحني إذن　　　فأسك الجبار إقداماً ووهجاً

كانت مصافحتنا جريئة وبريئة، لقد مزقت سجاف الغيب، وأتاحت لي اللقاء في ضياء العقل أكثر من ضباب الخوارق.

على شرفته في جبل النور كنت أطيل تأملي وحبي، أين غياثك أيها المعلم؟ حنانيك...

قد وهى صبري أما من نفحة　　　غير ما قد كان في غار حراء
كيف ترجو العيش يوماً زهرة　　　حجبت عن ري أمطار السماء

في سمائه العالية كنت أسعد بالإشراق في جوانح الذات، ولكنني أرجو أن لا يغضبه أنني أتطلع إلى إشراقه، ولكن على وفق ذاتي وليس على وفق ذاته، ولم أكن في إشراقه شيئاً عصياً، لقد تمكنت ذات مرة من إدراك سر ما حجت لأجله إليه الأمم:

أيها الصادق أشواقك في　　　غارك العالي شفاء للقلوب
كنت تلقيها على جنح الدجى　　　وتلقاها على جنح الغيوب

غير أنني لم أكن أكتم حيرتي من رسائل الدهر التي لا يفتأ يلقيها على تجارب الأمم، وها أنذا أحتار في تراثه العظيم، كيف جف ذلك النهر الجبار؟ وأين شميمه وضميمه؟ وأين أزاهيره وخمائله؟ وكيف يمكن أن يعبر عنه اليوم هذا المجرى المائت الذي فيه يختصمون؟

أيها الشاهد ما للمستقى　　　صار سقيا من دم مر وسم

إن ماء المزن ترياق الحياة　　ربما يقتل حبطـاً أو يلم

الحركة هي ضمير الحياة، وما جدوى حي لا حراك فيه، وأسن الأفكار أشأم من أسن الأنهار، يمكث الماء فيأسن، ويسير فيعذب، لن تستحم بماء النهر مرتين، فكيف يسوغ أن تركد ساقية الفكر، ومن أين لساقية الفكر مهما كانت عذبة صافية أن تدوم عذوبتها إذا هي لم تتجدد كل يوم؟
أنت أيها المعلم الكبير كنت أعظم نهر يتجدد كل يوم، ولكن ماذا عنا؟ وهل بقي نهرك الهدار يغسل عن جنوبنا وضر الهمود؟ وهل طوفانك الضافي لا زال يملأ الوادي بالحب والحياة؟ أم أننا ننظر إليك كما ميراث الأبناء من الأجداد يسلمونك للأحفاد محض مجد تسمية، ليس لها وثبة المكلوم في وجه الحياة.

أيها الصادق كم من وقفة　　قمت فيها ناسخاً حكم السماء
وشجاعاً كنت في تغييرها　　يا لنـا أتبـاع شؤم جبناء!!

كفاحك أيها المعلم في وجه الجمود كان رسالة للحياة، جئت تمنح الإنسان الحرية في وجه الكهنوت، وجئت تصفع في وجه الفريسيين والكتبة والمرائين الذين يقطبون وجوههم ناطقين باسم الرب، يتزلفون إلى العامة بالتحريم وإلى السلطان بالتحليل.
غارك العالي كان مرقاة تأملك، كنت تشرق بأطياف فؤادك فتغمر فضاء مكة بالحب والوصال، لم يكن مشروعك قد وجد النور بعد، ولكن قلبك كان يرسم لهم ملامح الدرب الذي نسجه الوحي الأمين:

يا نزيل الغار كم بالغـــار من　　حسـرة حرى وآمــال حزينة
سارع الله كمـــا تهوى بها　　وأتى حلمك فيها بالمدينـــة

غياثك أيها المعلم لا زال نداه ري العقل وفاكهة الروح، لن ننساك أيها المعلم وأنت ترسم رسالة الإشراق على هدي من ضياء العقل ونوره:

أيها الصادق كم حاربتها　　في ضمير الدهر أشكال الخرافة
ذات يوم أنت رويت الورى　　من لهذا الشعب يكفيه جفافه

أين أوار زندك؟ كانت تلتهب فيه رسالة الحياة، فينبعث من دفقه في شرايينك طوفان الثورة فيهوي على هامة الأوهام، ويسلخ عن الأرض بؤس العجز والخور:

يا مجيد العزم هل تذكرها　　تلكم الأوهام إذ كانت عماداً
فأسك الجبار أهوى فوقها　　فاستحالت بعد أوهاماً رماداً

الآن أيها المعلم دعني أسألك السؤال الكبير، ما رسالتك في الحياة؟ أحقاً جئت كما يقولون تختم النبوة وتحجب أبواب السماء عن عباد الرحمن؟ لا أصدق أيها المعلم!! لدي إحساس بأنك أطلقت من بعدك نعمة الإشراق التي كانت تختص بها الأنبياء فمنحتها لكل قاصد يرتاد الوصال على جناح الولاية

مرتجى داود في مزمـوره　　أمل عاش عليه الحنفـاء
وبه موسى دعا　في طوره　　رب فاجعل كل شعبي أنبياء

كانوا يرتجون لشعوبهم نورها وإشراقها، ويفتحون أبواب السماء مجاديح، ليصلوهم بحقيقة ما يجري في الملأ الأعلى، ولكن لماذا إذن تضن علينا بوارق الإشراق؟

ما النبوات التي كانت لكم　　غير أشواق وأذواق ونـور
أشرقت شوقاً على أسماعكم　　فجرت أنغامها فوق السطور

إنها إذن رسالة مقدسة تلتمس عناء الإنسان ثم تشرق عليه من عل بنفحات الملأ الأعلى، فتصل شوق الأرض بلهيب السماء، فلماذا تنطوي تلك الفصول من الإشراق؟ وما قيمة جسد لا تسري فيه تجليات الروح، وما مجد أمة أغلقت مواهب السماء وارتكست إلى وجع الأرض؟ ثم لماذا

تضن الرسالة بعدئذ ولا زال العالم يتخبط في حيرته؟ ومن الذي أعلن انتهاء عناء الإنسان في الأرض حتى تتصرف عنه عناية السماء؟

فلماذا ختمت أنوارها رغم ما يشهده العالم هذا
ولماذا طويت أسرارها ولمـاذا ولمـاذا ولمـاذا

كان يفترض أنه يعلم مكان هذه الأسئلة في ضمائر محبيه، تتصارع فيها نوازع الروح والقلب، ولكن لم يبلغ أن تجرأ لسان على التقاطه من صفحة الفؤاد!!

سكت ساعة، ثم قال لي بعدما استرسلت عيناه في الكون الكبير:

يا عزيزي لا تلمني إنني خدمة للعقل أنهيت النبوة
لم أشأ أرضى لكم أوهامكم فخذوا أقداركم مني بقوة

أي قرار هول يعلنه صاحب الوحي الأخير! انتهت النبوة، وبدأ عصر الإنسان، انتهى الوحي وبدأ عصر العقل، السماء أصبحت تثق بالأرض، وعلى الإنسان أن يتدبر أمره منذ اليوم.

ما لكم ولرسالتي؟ لقد ألهبت بها أرض الحجاز، ورويت ترابها دماً وقرنفلاً، وأخصبت منهم أرضهم وأفئدتهم، أنا قد مضيت، وتمت كلمتي صدقاً وحقاً، ولكن أين رسالتك أنت؟ وأين لهيبك أنت؟

مجدكم في الأرض لا ترسمه أنفس تسكن في جوف المقابر
فخذوا أقداركم وانتبهوا واصعدوا أنتم على تلك المنابر

من العجز أن تأتي وفاضك خالياً وقد طفت في تلك الربوع جميعها، لقد رسمت لك بقصة كفاحي ثورة الإنسان وحكمة البرهان، وأسلمتك لأقدارك في سنن الآفاق والأنفس، ولكن أي تابع عاجز أنت إن كنت تنتظر مني أن أسرج لك مصباحك بزيتي، وقد علمتك زراعة الزيتون، أو أن أرويك من جرتي وأنا قد أسلمتك بيدي إلى العين العذاب.

إن مصباحي الذي أوقدته نورك الباقي على مر العصور
إنما زيتك من يسرجه ليس زيتي وأنا ابن القبور

كيف أرسم غدي أيها المعلم؟ لم رحلت ولما ترسم لي ملامح الدرب الذي علي أن أسلكه بعد؟ قل لي أين كنـزت تلك الأسرار التي ترسم لي دربي؟ قال لي وهو يشير إلى غور الأفق:

أنا ماضيك الذي تذخره بيد قل لي أينه مستقبلك
ثورتي البيضاء في أرض الحجاز بيد قل لي أين منها ثورتك

وحين رآني مستغرقاً في شراك المدنية التي ملأت العالم بعبثها ولم تترك مكاناً للتأمل والبصيرة، راح يشرح لي من خلال عنائي:

أنا كالمرآة في سيارتك إن تراني تبصر الماضي وراءك
بيد لا يكفيك ماض آفل إنما دربك أبصره أمامك!!

أتراها كانت ساعة حقيقة، أم خيط دخان؟ أيمكن لكلماته التي ملأت العالم بالنور أن تملأ قلبي، فتكون درس الحياة الذي أتعلم منه ولا أنساه!

أيها المعلم الكبير .. أنت هو الحكمة الخالدة وأنت هو درس الحياة!!

محمد رسول الحرية [1]

لست أدري لماذا تعلقت في طفولتي بكتاب عبد الرحمن الشرقاوي (محمد رسول الحرية) على الرغم من أن الرجل معروف بميوله اليسارية، ومع أنني لم أكن أعلم اليسار من اليمين آنذاك، ولكنني لا زلت أذكر الدمعة في عيني، وأنا أتنقل بين صحائف هذا الكتاب، من باب لباب، أقرأ كفاح النبي الكريم حين نجح وحين عاكسته الأقدار، وحين انتصر وحين انكسر، كما هو حال كل من يقود ثورة كفاح تتضرج بدماء الشهداء وتعذب فيها التضحيات، وكان عبد الرحمن يرسم لي البسمة عند ساعة النصر ويسكب لي الدمعة عند لحظة الإخفاق، الأمر الذي جعلني أنظر إليه كرائد فريد من رواد السيرة النبوية الكريمة.

وأذكر تماماً كيف كنت أسمع بعض أساتذتي يحذرونني من قراءة أعمال الشرقاوي حيث لم يكن يطرح النبي الكريم في ثوب نبوته، وكان يكتفي برسم ملامحه في ثوب بطولته، وكانوا يرون في ذلك ريبة لا تبرر، وهو أمر يعانيه اليوم كل من كتب في الإسلام بطريقة غير تقليدية إذ تتناوشه سهام النقد وبيانات التجريح والتشهير.

ومع أن الكاتب اليساري غير معني برسم ملامح الغيب التي كان الرسول الكريم يتلقى منها أصول رسالته، ولكنه استطاع أن يرسم الصورة كاملة من خلال طموح شاب آلى على نفسه أن يحمل الآمال الدافئة لعقيدة التوحيد من أجل قيام نهضة حقيقية في أمته الغارقة حتى الثمالة بأمراض الجاهلية.

بخلاف ما تعودته الناس من الأساطير التي تنسج عن رجال الغيب والناطقين باسم الرب، فإن النبي محمداً رسم لنفسه ملامح أخرى تتأكد فيها بشريته وضعفه الإنساني أكثر من أي شيء آخر، تقرأ ذلك مئات المرات في نصوص التنزيل: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم!! الأمر الذي جعل يهود المدينة يقولون: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به ولا بنا؟؟

إنه نبي شجاع بكل المقاييس، لقد وقف أمام الناس وهو يحدثهم عن حجم معرفته البشرية بأمانة: أيها الناس إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأسمع منه فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي جمرة من النار فليأخذها أو ليدعها.

في موقف آخر أورد المحدثون أن النبي الكريم لما وصل المدينة رآهم يؤبرون النخل، وتأبير النخل شيء في غاية الغرابة إذ لا يشتمل على تلقيح مادي مفهوم، بل هو تعليق غصن صغير من شجرة على شجرة أخرى حيث يرسل الله الرياح لواقح فيصل بعض طلع النبات ببعض بحكمته وأمره فيكون في ذلك العافية والنشاط للثمرة وتورق بعد جدب وتزهر بعد قحط.

وصل النبي الكريم المدينة المنورة فرأى أهل المدينة يؤبرون النخل، لم يكن معنى التأبير واضحاً وتبادر إلى ذهن النبي الكريم أن الأمر لا يعدو أن يكون واحدة من الخرافات التي سادت في الجاهلية واشتملت على الأوهام وسرعان ما أنكرها فيهم وقال: ما أرى ذلك يغني عنها شيئاً؟؟

[1] نشرت في صحيفة الثورة السورية 2006/4/7

كانت القداسة التي تحيط بأذهانهم عن النبي الكريم تحول بينهم وبين استيضاح الأمر فبادروا إلى السمع والطاعة من دون حوار، وهم على يقين بأن ما دعاهم إليه النبي الكريم أبرك وأفضل، ولكن مع ظهور الموسم لم يشاهد الناس شيئاً مما توقعوه وكانت المفاجأة أن الشجر لم يحمل إلا شيصاً، لا زهر وفيه ولا ثمر!!

في تلك اللحظة كان على النبي الكريم أن يخوض امتحاناً دقيقاً فكيف يمكنه أن يقول إنه أخبر الناس بأمر ظهر خطؤه؟ وأن توقعه لم يكن صائباً؟

كان في إمكانه أن يقول غير ذلك، وأن يدفع باتجاه حل غامض يربط فيه شح الأرض بإرادة سماوية علية، لا تحيط بها الأفهام ولا تدركها الأوهام، ولكنه مضى أمام الناس بكل شجاعة قائلاً : أيها الناس، إذا أمرتكم بالشيء من أمر دينكم فهو مني وأنا قلته، وإن أمرتكم بالشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمور دنياكم!!

إنها تماماً إرادة مباشرة للرجل الذي ألقي على كاهله إعادة رسم خريطة العالم أن يقول للناس أنا بشر مثلكم

إنها قراءة أخرى لنور النبوة لا تشبه في شيء تلك القراءة الأسطورية التي تختصر كفاح النبي الكريم وجهاده وجراحه في سلسلة من العجائب التي جادت بها قرائح المحبين، كان فيها يركب الهواء ويمشي على وجه الماء، ويسارع ربه في هواه، وتأتي لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم، ويفوق جوده الدنيا وضرتها، وتشتمل علومه على علم اللوح والقلم.

بإمكانك أن تقرأ السيرة النبوية الكريمة كما سطرها أئمة كبار في تاريخ الإسلام الأول كأبان بن عثمان بن عفان ومغازي عروة بن الزبير والواقدي وابن سعد والبخاري ومسلم، وغيرهم من المحدثين والرواة حتى تصل إلى ما حرره ابن حجر في المواهب اللدنية ثم النبهاني في الأنوار المحمدية، وهو تراث عارم فيه الغث والسمين وفيه الأصيل والدخيل، ولكن ذلك كله لن يكون وافياً لأولئك الذين يريدون في حياته رمز كفاح إنساني تقتدي به الأمم.

إنني أرحب بكل ما أنجزوه في السيرة النبوية، ولكن أدعوكم لقراءة السيرة الكريمة مرة أخرى على منهج محمد عبده ومحمد إقبال وعبد الرحمن الشرقاوي وحسين هيكل وعباس محمود العقاد وروجيه غارودي ومراد هوفمان ومالك بن نبي ووحيد الدين خان وجودت سعيد.

إنه بكلمة واحدة: النبي الذي نقل العالم من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

عيد البرية عيد المولد النبوي

لماذا نحتفل برسول الله؟

إذا أردنا أن نجيب كوطنيين ، فإن من المؤكد أن هذه الأرض الطيبة عانت قبل الإسلام لثلاثة عشر قرناً من الاستعمار الرومي واليوناني والفارسي أحياناً ، وفي غبار هذا التسلط الأوربي على بلادنا فإن أول مرة يحكم فيها أبناء هذه الأرض أنفسهم إنما كانت يوم وصل الفتح العربي الإسلامي إلى هذه البلاد على أيدي الصحابة الكرام ، ورغم أن سوريا قدمت لروما أباطرة وبابوات ولكن ظل الحاكم السوري يعين من روما وبيزنطة وأثينا وظلت مواهب السوريين قابعة في الظل على أساس أنهم لا يجري فيهم الدم الآري ، وأنت عارف بأن المندوب السامي مهما كان (سامياً) فإنه متهم في إخلاصه للارض والناس .

علينا أن نتذكر أن الأرض التي نعيش عليها في سوريا بلاد الشام الشريف كانت تحكم من بيزنطة، ومن قبل من روما، ومن طيسفون ومن أثينا، ولأول مرة يحكم العربي ترابه العربي كان ذلك يوم أطلق الرسول الكريم مشروعه التحرري الرائد لتهتدي به الأمم وتسعد به الشام التي سيصبح اسمها من تلك اللحظة أرض الشام الشريف.

وكحدث ذي دلالة أورده ابن كثير قي البداية والنهاية فإن دمشق الشام حوصرت من قبل الصحابة سبعين يوماً قبل أن يتم تحريرها ، وكان من خبر الفتح أن أبناء دمشق الذين كانوا يعانون من جور الروم ، كانوا يطلعون خالد كل يوم سراً بأنباء القوم ، وتم لهم الفتح عندما رزق حاكم دمشق يومها واسمه نسطاس بن نسطورس مولوداً ، ومن أجل ذلك أقام فرحاً هائلاً وأحيا تلك الليلة بالسهر والصخب إلى الصباح من دون أي مبالاة بحصار البلد والوضع العسكري الاستثنائي، وعند الصباح وفيما كان نسطورس وأتباعه يشربون حتى الثمالة كان خالد بن الوليد يطرق أبواب مدينة دمشق بالفتح المبين، ولأول مرة في تاريخ الشام تحكم هذه الأرض بيد أبنائها الأصليين العرب الذين سكنوها منذ آلاف السنين بعد أن تغلبت على إرادتهم فيها مطامع الاستكبار العالمي لقرون طويلة .

وإذا أردنا أن نجيب كقوميين ، فإن هذه الأرض لم تستعد عافيتها القومية إلا على يد الفاتحين من أصحاب النبي الكريم ، وبدونهم فإن أرض الشام كانت ماضية إلى فرنجة مبرمجة بغرض تمييع شخصيتها وإذابة كيانها الثقافي واللغوي ، وكانت الرومية قد أصبحت لغة الدواوين ، وأوشكت العربية أن تصبح غريبة في عقر دارها ، بعد أن تعاقب عليها العديد من أشكال الهوان اللغوي والتاريخي ، ولأول مرة منذ قرون طويلة تعود العربية إلى دورها الرائد لغة الإدارة والثقافة والحكم .

بالمناسبة فقد أصبح من الضروري الخلاص من الفكرة الضبابية التي تحيط بتاريخنا وتصور الشعوب (السامية) التي سكنت المنطقة ومنهم الأكاديون بفرعيهم الكلداني والبابلي والإيبليون والفينيقيون والكنعانيون على أنها شعوب غير عربية وأن الفتح الإسلامي هو الذي جاء ب(الضيوف) العرب إلى المنطقة و هذا زيغ تاريخي افتراه المستشرق النمساوي شلاوزر حين بدأ باستخدام لفظة (الشعوب السامية) كمصطلح أبستمولوجي لأول مرة بعد أن كانت محض ميثولوجيا تاريخية.

وهنا أشير إلى دراسة جد هامة وهي كتاب فقه اللهجات العربيات للصديق الدكتور بهجت قبيسي حيث تولى بالبحث العلمي الدؤوب من خلال الرقم والآثار تعرية هذا الوهم الذي نمارسه وندرسه دون أن ندري أننا ننسف به وجودنا القومي من أساسه ، وقدم الأدلة الواضحة من الرقم والمخطوطات المادية لإثبات أن الآرامية والبابلية

والكلدانية والسريانية وغيرها ليست إلا لهجات عربية غير عدنانية ، وأن تفاوت بعضها عن العربية السائدة ليست إلا مسألة لهجات ، وأنها في النهاية ليست إلا اللغة العربية بالحامل الإقليمي .

وهكذا فإن كل شواهد التاريخ تؤكد أن الفتح الإسلامي الذي أطلقه النبي الكريم هو الذي حفظ عروبة المنطقة، وحين جاء الفاتحون المسلمون وبأيديهم القرآن الكريم ينطق بلسان عربي مبين فإنهم كانوا يمارسون دوراً إنقاذياً هائلاً على صعيد وجودنا القومي، ويمكن القول بدون أدنى مبالغة أنه لا يوجد مدرسة واحدة تدرس العربية في طول الوطن العربي وعرضه إلا وهي مدينة للنبي الكريم وللصحابة الفاتحين ، ولولاهم لكنّا ندرس اليوم اللغة الرومية أو اليونانية!

بل إن امتداد اللغة العربية في الأرض عبر العالم الإسلامي وجعلها لغة العلم والحضارة لأكثر من ستة قرون وتدوين التراث الإسلامي من الهند وآسيا الوسطى إلى الغرب الأفريقي باللغة العربية دون سواها على الرغم من انتشار عشرات اللغات والقوميات في تلك المناطق وهو ما منح اللغة العربية دوراً معرفياً رائداً في الأرض كل ذلك لا يمكن تفسيره موضوعياً دون الانطلاق من مولد الرسول الكريم .

وإذا أردنا أن نجيب كحضاريين نؤمن بالإنسان فإن دمشق لم تأخذ دورها الحضاري اللائق بها إلا بعد وصول أصحاب النبي الكريم ، حيث كانت قبل ذلك ولقرون طويلة تعامل كتابعة تسويقية لروما ، أو ضيعة غناء في طرف صحراء شرقية ، أو محض أرض طقوسية دينية تصلح للرهبنة والتزهد ، وهكذا فإنك تجد فيما تركه الرومان هنا المعابد والأديرة والآلهة وقنوات المياه دون أن تجد مدرسة أوبيمارستان أومكتبة تعكس دوراً حضارياً للمنطقة ولكن سرعان ما أصبحت دمشق مع وصول الصحابة الكرام إليها عاصمة حضارة هائلة تمتد من طليطلة إلى السند وتملأ أطراف الأرض بالعطاء الحضاري والمعرفي .

علينا أن نتذكر أن أرض الشام الشريف ظلت تعامل كتابعة تسويقية صغيرة لأطماع الروم والفرس والعجم، وكانت خيراتنا هنا تسرق إلى بيزنطة، وكان ممنوعاً على السوري أن ينهض.

حين اختار السوري النهوض وأيقن أن روما لن تسمح له بالوثوب في الحواضر، ذهب إلى الصحراء، وهناك قامت امرأة سورية جبارة ببناء حضارة هائلة في قلب الصحراء، بالميرا التي لا تزال إلى اليوم شاهداً باقياً على عظمة الإنسان السوري وعظمة مجده، ولكن هذه السيدة الجبارة لم يسمح لها بالنهوض وتحطمت آمالها على يد الجيوش الرومانية التي طاردتها إلى قلب الصحراء!!

كان ممنوعاً على السوري أن ينهض!!

لقد خرج أورليانوس الامبراطور الروماني الجبار بنفسه على رأس جيش عرمرم يواجه الزباء في صحرائها، وكان يحمل رسالة واضحة ممنوع على سوريا أن تأخذ مكانها تحت الشمس، عليها أن تبقى ظلاً لإرادة الأقوياء، وحين واجهته زنوبيا ببسالة وأوجعت رجاله بسياط العدل كان يرسل فتأتيه الأمداد تلو الأمداد حتى تمكن من قتل الطموح السوري وأخذ زنوبيا إلى روما معلناً للعالم نهاية طموح سوريا في قيام استقلال وطني أو ريادة حضارية.

ولكن المشروع الذي قاده النبي الكريم أوصل الحضارة العربية السورية إلى قلب العالم!!

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

وإذا أردنا أن نجيب كمؤمنين فإن علينا أن نتذكر أن النبي الكريم هو هادينا إلى الله وهو من أرشدنا إلى عقيدة التوحيد وخلصنا من عبادة العبيد إلى عبادة الله الواحد

إنه النبي الذي حقق أعظم آمال العالمين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

حقيقة عبر عنها الشاعر المسيحي المنصف رشيد الخوري في مطلع قصيدته:

عيد البرية عيد المولد النبوي   في المشرقين له والمغربين دوي

يا قوم هذا مسيحي يذكركم   لن ينهض الشرق إلا حبنا الأخوي

فإن أتيتم رسول الله تكرمة   فبلغوه سلام الشاعر القروي

وإذا أردنا أن نجيب كمؤمنين فبحسبك أن تقرأ في القرآن الكريم : هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

مولدﷺ الرسول

الإعجاز في الإنجاز [2]

خلال حديث ودي مع الصديق العزيز روبرت كرين قال لي: إن أعظم ما أقنعه بعظمة النبي الكريم محمد، إنما كان في مطالعته لحال الأمة العربية قبل الإسلام، فإذا كان الإسلام قادراً أن يقود الناس في ظروف كظروف عرب الجاهلية ويجعل منهم خير أمة أخرجت للناس فإنه بالتالي قادر أن يتحرك في أي أرض ويبني مجد الأمم في أي مكان في العالم، وصالح لكل مكان وزمان!!.

والسيد روبرت كرين كاتب أمريكي عمل مستشاراً للرئيس نيكسون، ثم عين سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في الإمارات العربية المتحدة، وقد زار سورية مراراً وسعد بالإسلام وتسمى باسم فاروق عبد الحق، وأسس مركزاً للدراسات الاستراتيجية في أمريكا، ويعتبر اليوم من أبرز الأصوات الأمريكية الداعية إلى مقاومة السياسة الأمريكية المنحازة تجاه العرب والمسلمين.

كان ظهور الإسلام أهم حدث إيجابي في تاريخ الأمة العربية والشعوب الإسلامية على الأرض الواسعة التي تمتد عليها هذه الشعوب من المحيط إلى المحيط، على الرغم من تعدد الأعراق والأجناس والألوان والثقافات التي تغني هذا العالم الإسلامي، وجذور تلك الشعوب في التاريخ.

---

[2] نشرت في جريدة تشرين أيار 2003

فعلى صعيد المنطقة العربية لم تشهد الأمة العربية وحدتها إلا في ظلال الإسلام، ولم يظهر نهوضها
، الذي أطلق رسالة الإسلام بلسان عربي مبين، وهي تشتمل ❐القومي إلا في ضياء رسالة النبي محمد
إلى جانب انتصارها للحق، مجداً ظاهراً للأمة العربية {وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون}

عادة ما نتحدث عن الأنبياء من خلال إعجازاتهم التي تحدَّوا بها العقل البشري، وهي ألوان من الإعجاز كانوا يتحدون قدرات الناس المادية في رسم ملامح علاقة بالغيب لا يعرفها الناس بالوسائل المادية، فكانت آية نوح في الطوفان وآية إبراهيم في نجاته من النار، وآية موسى في العصا والحجر وشق البحر، وكان السيد المسيح يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ولكن في ميعاد مجيء خاتم الرسل كانت المسألة قد تبدلت تبدلاً تاماً، فهذا النبي الخاتم سيخرج إلى الدنيا برسالة جديدة ومنهج جديد، وستكون معجزته التي يستدل بها على صدق رسالته ليست محض ميثولوجيا غاربة على جناح الميتافيزيق، إنها في الواقع إنجازه على الأرض، ورسالته التي قدمها للحياة!!.

بالتأكيد ليس من المنطقي السعي وراء الأوهام الشوفينية التي تورط بها كتاب كثير حين أفرطوا في
، وهو منهج غير مبرر في ♏تصوير هوان العرب قبل الإسلام رغبة في إظهار عظمة النبي الكريم
نظري فالعرب كانت تمتلك إرثاً حضارياً غير قليل خاصة في الجوانب الخصيبة للجزيرة العربية في الشام والعراق واليمن، ولكن ما لا خلاف فيه أن عرب الحجاز تحديداً كانوا في غاية من الهوان الحضاري والعلمي إلى درجة أنهم لم يكونوا يعرفون كتاباً واحداً باللغة العربية مكتوباً بأيدي أبنائها، وكذلك فإن قسوة الحياة كانت قد أفرزت فيهم طباعاً قاسية، دفعتهم إلى العيش في ظروف حروب مستمرة لا تنتهي ، وأصبح باب السيف والقتل جزءاً رئيساً في كل قصيدة يكتبها شاعر عربي!.

ولست أحتاج هنا لدليل أوضح من قراءة دواوين شعراء الجاهلية، حيث لا يخلو ديوان منها من قصائد الفخر والنصر، وهي القصائد التي نهتم عادة بإسقاطاتها الأدبية، وإيقاعاتها اللفظية من غير أن نتأمل حقيقة الانحراف الأخلاقي المريع الذي كان قد انحدر إليه السلوك العربي آنئذ، من تمجيد الغزو والسلب والنهب والإغارة على الجار وابن العم بقصد استلاب ثروته، وسبي حريمه.

إن كثيراً من روائع الأدب العربي التي خلد بها شعراء الجاهلية (بطولات) أقوامهم في وضح النهار، يمجد فيها البطش على الرغم من دناءة المقاصد وخستها، حيث تقوم عصابات الجريمة المنظمة بالعدوان والاغتصاب والسرقة، وليس ذلك أسوأ ما في الأمر، بل أسوأ ما فيه أن هذه الجرائم كانت تجد من يمجدها ويخلدها على أنها بطولات ومجد، ويسطرها في روائع الأدب العربي، ويعلقها على جدار الكعبة المشرفة !.

ويمكن أن نقرأ من معلقة عنترة بن شداد التي يتغنّى فيها ببأسه ويصف شدته مع قومه عبس في مقاتلة إخوانهم بني ذبيان :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وحليل غانية تركت مجندلاً تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداي له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينهشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

ومن معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي يصف لنا فيها تواطؤه وتآمره على قتل عمر و بن هند اللخمي أمير المناذرة، والذي قتل بدوره بعض بني تغلب، فقتله عمرو بن كلثوم، وأنشد فيه قصيدته هذه التي علقها العرب على باب الكعبة:

قريناكم فعجلنا قراكم قبيل الصبح مر داة طحونا

كأن جماجم الأبطال فيها وسوق بالأماغر يرتمينا

نشق بها رؤوس القوم شقاً ونختلب الرقاب فتختلينا

نجز رؤوسهم في غير بر فما يدرون ماذا يتقونا

كأنا والسيوف مسللات ولدنا الناس طرّاً أجمعينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ونبطش حين نبطش قادرينا

وهكذا كانت ملامح حياة مصطبغة بالدماء ترتسم في كل مكان في جزيرة العرب، وكان غاية ما فعله الحكماء أنهم أفلحوا في إعلان أربعة أشهر أياماً حراماً، يأمن الناس فيها على أموالهم وأعراضهم لأداء مناسك الحج والعمرة، على أن هذه الأشهر الحرم لم تسلم من النسيء الذي كان يفسد الأمن المؤقت فيها، وهو ما اعتبره الإسلام زيادة في الكفر وإلحاداً في الحرم.

وكان شهر صفر هو الشهر الذي يستأنف فيه العرب نشاطهم القتالي بعد انقضاء الأشهر الحرم، فتصفر فيه البيوت من الشباب الذين كانوا ينطلقون في كل وجه للغزو والسلب والنهب، ولهذا المعنى أطلقت العرب على هذا الشهر تسمية شهر صفر ، ولهذا المعنى كانت العرب تتشاءم من شهر صفر لكثرة ما كانت تزهق فيه من أرواح، وترتكب من جرائم.

وعندما قال النبي الكريم: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، فأبطل بذلك التشاؤم من شهر صفر لم يكن في الحقيقة يطلق كلاما في الهواء، وإنما حقق الأمن في الأرض ثم قال لا صفر، وبغير إنجازه الكبير في الجانب الأمني فإن هذا النفي سيكون بغير معنى، وهكذا فنفي الشؤم عن شهر صفر جرى بعد أن تلاشت أسبابه وتم إعلان أن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وتوفرت الوسائل المادية لتحقيق ذلك على أتم وجه.

إنها الأمة نفسها التي جعل منها الإسلام أمة الرسالة الخالدة وأطلق جهادها في الآفاق خير أمة أخرجت للناس، وقامت بأداء دورها التاريخي على أتم وجه، في تحرير الشعوب والأمم من المظالم والقهر وأشكال العداوات، حتى روى القاضي شريح في أخبار القضاة أن أبا بكر استعمل على القضاء عمر بن الخطاب فمكث قريباً من عامين لا يأتيه خصوم، فأقبل إلى أبي بكر يستعفيه من القضاء، قال له أبو بكر أتنزع ثوباً ألبسكه الله؟ قال : كلا، ولكن أنا في مجلس القضاء منذ عامين اثنين، ما جاءني متخاصمان!!

هنا تماماً يسوغ القول إن أعظم إعجاز للنبي الكريم إنما كان إنجازه على الأرض، وهي بذلك دعوة للأمة إلى تكرار معجزته الباقية على الأيام في النهوض والتوثب إلى مراتب المجد.

إن يوم مولد النبي الكريم ﷺ دعوة إلى إحياء رسالته في النهضة والتوثب، وهي رسالة تتجدد كلما مرت بنا هذه الذكرى العظيمة.

كل عيد هجرة وأنتم بخير[3]

اليوم يرتاح 804422 موظفاً سورياً في بيوتهم، ابتهاجاً بيوم الهجرة العظيم.

وهو عدد الموظفين السوريين وفق بيانات المكتب المركزي للإحصاء لعام 1988، وهو رقم لا يشتمل على العسكريين والعاملين في الرئاسة والقطاع المشترك.

فإذا كان متوسط الدخل اليومي للموظف 150 ليرة سورية فإن معنى ذلك أن الدولة تدفع نظرياً أكثر من 120 مليون ليرة سورية كل عام لإحياء ذكرى الهجرة ودلالاتها في النفوس، وتوكيد الانتماء والهوية في البلد.

ولكن هل يقوم الإعلام والتعليم والثقافة والأوقاف بالدور المطلوب لإحياء دلالات هذا الحدث الذي التقت إرادة الأمة على إحيائه؟

إن متابعة سريعة لبرامج الإذاعة والتلفزيون والصحافة المحلية تكشف لك مدى التجاهل المحير الذي نتعامل به مع تاريخنا وأمجادنا، وهو تجاهل لا مبرر له على الإطلاق بعد أن اختارت القيادة في سوريا اعتبار الهجرة مناسبة وطنية، وبعد أن أصدر السيد الرئيس توجيهه الواضح باعتماد التاريخ الهجري في سائر المعاملات الرسمية، تأكيداً على الهوية وتنويهاً بأهمية الحدث العظيم.

تكمن أهمية يوم الهجرة العظيم في أنه أول يوم يتحقق فيه للعرب قيام دولة القانون على أساس من الالتزام بالدستور الذي قدمته المدينة المنورة كأول وثيقة سياسية تحكم بموجبها الأمة وتنظم العلاقات التي كانت من قبل داشرة للخيارات العشائرية مما أتاح الفرصة للكيد اليهودي أن يمارس دوره التقليدي في استنزاف خيرات العرب.

ومع وصول النبي الكريم إلى يثرب التي سوف تسمى المدينة المنورة في إلماح ذي دلالة فإن أول دولة قانون في الجزيرة العربية أعلنت عن قيامها في ظلال حكم الثائر المجاهد الرسول الكريم الذي رفض الخضوع لأوثان قريش وإرادة سدنتها، ورفض الخضوع للهيمنة الرومية أو الفارسية التي كانت تتقاسم النفوذ في جزيرة العرب.

وفي قراءة سريعة للنجاحات التي تحققت للأمة في عامها الأول من حكم الرسول في المدينة فإننا نطرح في العادة إنجازات على صعيد الرسالة والدعوة وهو كذلك، ولكننا نشيح بوجهنا عن إصلاح كثير تحقق على المستوى المدني والاجتماعي.

مع وصوله إلى المدينة أعلن النبي الكريم عن أكبر خطة طموح من أجل الإصلاح الزراعي في المدينة وتحويل المدينة من مزرعة يديرها الربا اليهودي إلى أرض طَيْبة التي ستصبح إلى زماننا هذا أبرك أراضي الجزيرة العربية في إنتاج التمور، فقد شكل ما يمكن تسميته باللجنة العليا للتشجير، وعهد برئاستها إلى طلحة بن عبيد الله الذي قام بحفر سبعة وخمسين بئراً في المدينة، وتم لأول مرة إرواء المدينة المنورة عن طريق القنوات بدلاً من أسلوب الري بالنضح الذي كان يستغرق جهداً كبيراً ويحقق نتائج متواضعة، هكذا فقد تضاعفت المساحة الخضراء في المدينة على الرغم من المسؤوليات الكبرى والتحديات التي كانت تواجه الأمة.

---
[3] نشرت في جريدة تشرين الثورة آذار 2000

وبعد ذلك أدخل الإصلاحات التشريعية المطلوبة للنهوض بالزراعة فشرع السَلَمَ والمزارعة والمساقاة، وأذن بالمحاقلة والمزابنة، وأنشأ نظام إحياء الموات وهو نظام فريد يتملك فيه المرء أي أرض ميتة بمجرد إحيائها بالزراعة من غير أي ثمن!

وفي إطار الخدمات تنبه النبي الكريم إلى الموهبة الفريدة التي كانت لدى الصحابي السوري الأصل تميم ابن أوس الداري الذي نور المسجد النبوي بالسرج ومنحه عدداً من المساعدين وشكل ما يمكن أن يسمى اللجنة العليا للإنارة وكلفه بتنفيذ مشروع إنارة طموح حيث أنار بالسرج عوالي المدينة المنورة،حتى أصبحت كأنها قطعة قمر،ولما تم إنجاز المشروع إياه كرمه الرسول الكريم كبطل إنتاج من الدرجة الأولى ثم قال لو كانت لي بنت لزوجتها تميم بن أوس الداري وهو لون من التكريم يفوق أي وصف،وبعد ذلك فإن النبي الكريم أقطع الداريين قطعة أرض كبيرة يستثمرونها وحط عنهم الخراج عشر سنين في تشجيع واضح للاستثمار فما زالوا تنمو أرزاقهم حتى أيام عمر حيث أعاد فرض الخراج عليهم، وهو وعي مبكر بمتطلبات الاستثمار في الدول النامية.

وفي الإطار السياسي فقد كانت الهجرة إيذاناً بقيام أول كيان عربي تام الاستقلال يقيم الدولة على أساس غير عشائري،وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان رجال الرسالة يضربون في كل وجه يحملون للآفاق رسالة الله ويبشرون بالإسلام الذي هو خلاص الإنسانية من إسار الفرقة والتشرذم.

إن قراءة عميقة في دلالات الهجرة العظيمة تكشف لنا أن التقويم بالتاريخ الهجري ليس محض رغبة تمييزية بقدر ما هو إحياء لمثل كبرى من مصلحة الأمة أن لا تغفل عنها أو تتجاهلها.

ومن المنطقي هنا أن تنتبه وزارة الأوقاف إلى ضرورة إحياء هذه المناسبة بالشكل اللائق بها،إذ هي بدن أدنى شك أولى بالإحياء من ليلة النصف من شعبان على سبيل المثال التي لا تحظى بإجماع كاف من المسلمين زيادة على أنها محل جدل كبير ليس هذا مكانه.

ومن المؤكد أن إعادة اعتبار التاريخ الهجري أداة تقويمية يتطلب ضرورة بعض الإصلاحات التي ترفع غائلة التردد في ثبوت الشهور عن طريق استخدام وسائل الرصد العلمية التي أصبح احتمال الخطأ فيها غير وارد بالمرة،وهو سؤال نطرحه برسم حراس القديم الذين يرون في كل تجديد لوناً من العبث والزندقة، وهو وهم يعود بالضرر أولاً على النص الذي يحرسون والتاريخ الذي يقدسون.

محمد ..... بطل استقلال سوريا الأول[4]

من المهم أن يعلم السوريون أن الاستقلال في سوريا لم يبدأ مع حسن الخراط وسلطان باشا الأطرش وابراهيم هنانو وصالح العلي ومحمد الأشمر، بل إن الاستقلال كفاح طويل بدأ منذ زمن بعيد قبل يوسف العظمة وقبل شهداء السادس عشر من أيار.

إن علينا أن نبدأ الحديث عن أبطال سوريا من اللحظة التي استفاق فيها الأمل العربي القومي على يد رسول الله محمد بعد أن كانت الأمة العربية متاعاً موروثاً للأمم تناوب على ابتزازه المستعمر البيزنطي والروماني واليوناني والفارسي، حين أعلن رسول الله بنفسه عن بدء إرادة التحرير والخلاص في بلاد الشام، وأرسل رجاله إلى مؤتة ثم تحرك بنفسه إلى تبوك في أول محاولة حقيقية جادة لتحرير سوريا من إرادة الغرباء وليتمكن أبناء التراب السوري من حكم أنفسهم بعد أن قال هرقل البيزنطي وداعاً يا سوريا ودعاً لا لقاء بعده.

كانت أول حركة استقلال وعلينا أن ندرس الاستقلال من تلك اللحظة وأن نعتبر أبطال مؤتة الثلاثة الرابضين في بوابة سوريا الجنوبية عند مؤتة أول أبطال استقلال في تاريخ سوريا وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة.

هل من المبالغة في شيء أن ندرج أسماء هؤلاء في سجل أبطال الاستقلال؟ كيف نتصور شكل سوريا لولا هؤلاء الأبطال الاستقلاليون الأوائل، كيف نتصور تاريخ سوريا لو لم يصل أسامة بن زيد وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعياض بن غنم والقعقاع بن عمرو وعبادة بن الصامت ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من قادة الفتح الإسلامي لبلاد الشام؟

كانت سوريا قد عانت لثلاثة عشر قرناً من حكم الأجنبي يونانياً هيلينياً ثم فارسياً ساسانياً ثم رومانياً فبيزنطيا، ولم يكن في وارد هذه القوى العظمى آنذاك أن تمنح سوريا استقلالها صدقة أو إحساناً فالحرية لا تكتسب بالمن والإحسان وإنما لها باب بكل يد مضرجة يدق، وكانت سوريا تعامل ثقافياً واقتصادياً كتابعة تسويقية للقسطنطينية ومن قبل لروما، وكان ممنوعاً على السوري أن ينهض.

حين قرر السوري الجبار أن يبني حضارته بإرادته، كان المستعمر يرفض ذلك كله ويعتبر سوريا مزرعة موروثة، وحين قررت زنوبيا أن تنهض بإرادة من حديد في قلب الصحراء وتمكنت من صناعة المعجزة المدهشة التي لا زالت إلى اليوم محج السائح الأوروبي المدهوش، وخلال سنوات قليلة دخلت مصر والشام وأنطاكية والأردن في المشروع العربي القومي الذي حملته زنوبيا بالمناسبة فإن اسمها زينب بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن السميدع العربية الآرامية مع كل ذلك السحر والمجد قرر الروماني أن ينتقم من إرادة الحرية والاستقلال، وأرسل جيوشه إلى قلب الصحراء ولم يهدأ

---

[4] نشرت في جريدة الثورة السورية 2008/4/18

للأباطرة جفن حتى تمكن أورليانوس من تدمير تدمر وأسر زنوبيا وحملها إلى روما، وأعلن انتهاء الحلم العربي السوري في الاستقلال.

وكان من الممكن أن تنتهي أي إرادة استقلال وفق التراجيديا التي انتهت بها ثورة الزباء، ولكن ذلك كله تغير يوم قرر النبي الكريم أن يوجه بصره صوب الشام ويطلق دعوته الصادقة اللهم بارك لنا في شامنا، وأعلن أن الشام فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى في أرض يقال لها دمشق في غوطتها هي خير مدائن الله يومئذ.

لم يحصل أن النبي الكريم قاد خيله خارج منطقة الحجاز إلا مرة واحدة كانت وجهته فيها أرض الشام، وكان تحرير سوريا حلمه الدائم، يؤرقه ويقلقه، وقد أرسل لتحرير الشام الأبطال الثلاثة زيد وجعفر وابن رواحة، وحين استشهد الأبطال الثلاثة في مؤتة على بوابة سوريا الجنوبية احتسبهم عند الله وأعلن عن قيام جيش العسرة في أيام الصيف القائظ وقاد الجيش بنفسه نحو الشام، وبلغ تبوك ودومة الجندل، ثم عاد وجهز من فوره جيش أسامة وزوده بأكبر الخبرات لديه ومع أنه دخل مرض الموت ولكنه ظل يقول أنفذوا بعث أسامة ، ومات وهو يقول على فراش الموت أنفذوا بعث أسامة!!

كان من الممكن أن يتغير كل شيء لو أخفق أبطال الاستقلال الأوائل في عصر الرسالة عن إنجاز مهمتهم في سوريا وكان تاريخ سوريا سيستمر كواحدة من المستعمرات البعيدة للروم وراء البحار، كغويانا أو كرواساو وكانت دمشق وحلب تداران من القسطنطينية كما تدار اليوم سبتة ومليلة من مدريد، أو كما تدار كوروأساو وجزر الكاريبي من هولندا.

إنهم أيضاً أبطال استقلال كبار وينبغي أن لا ننساهم في غمار حديثنا عن الشهداء وأن نرسل لهم أيضاً باقة زهر وأن نحييهم باحترام.

فهل تقوم محافظة حمص بالوفاء لبطل الاستقلال الذي اكتسبت المدينة اسمها من مجده مدينة ابن الوليد، وهل نشاهد محافظ حمص وقائد شرطة المحافظة ووجوه حمص يوم الجلاء يقومون بالتحية لبطل الاستقلال الكبير في سوريا خالد بن الوليد؟

وهل نشاهد عرضاً عسكريا لائقاً يوم الاستقلال بإشراف محافظ درعا يتحرك صوب شلالات تل شهاب لتخليد معركة ميسلون الظافرة الأولى في وادي اليرموك؟ ويرسل باقات زهر لائقة إلى الأبطال الثلاثة في عتبة حوران في مؤتة؟ قد لا تكون الأماني الإقليمية في خاطرهم حين قادوا كفاحهم، ولكن من يستطيع أن يزعم أنهم لم يقرؤوا قول الله تعالى: وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون؟ ومن ينكر أنه لم تكن في أمانيهم توق لرحلة الشتاء والصيف في اليمن السعيد والشام الشريف وأن رسالتهم ومسؤوليتهم في تحرير هذه الأرض هي جزء من رسالة القرآن الكريم الخالدة؟

قد لا يكون في رسالتهم أنهم أبطال استقلال، وسيبدو هذا المصطلح غريباً على أسماعهم إذا تلوناه عند قبورهم، فالرجال قاموا ليجاهدوا في سبيل الله، وحين خاضوا كفاحهم كانت بين أعينهم رغائب الجنة وحورها العين، ولكن قراءة معاصرة لكفاحهم ستحدد لك تماماً تفسير قولهم: في سبيل الله والمستضعفين في الأرض، وتفسير صرختهم جئنا لنخرج الناس من عبادة العبيد إلى عبادة الله الواحد:

هل جاءكم نبأ العقيدة عندما خرت لها الأيام للأذقان

ومحت من الدنيا الفوارق بعدما   محت الفوارق فطرة الإنسان

إنهم أيضاً جزء من تاريخ استقلال سوريا وسيسألنا التاريخ عن الجحود الذي نمارسه حسن نتحدث عن الاستقلال من الفصل الأخير فقط وننسى الفصل الأول الأكثر أهمية وتحدياً في تاريخ استقلال سوريا، الرجال الذين صححوا مسيرة التاريخ وأعلنوا للمحتل الباغي ما أعلنه سعد بن معاذ أمام رسول الله يوم حصار الخندق: والله لا ينالون من أرضنا تمرة واحدة إلا بيعاً أو قرى، وفيما سوى ذلك مالهم عندنا إلا السيف، وهي ذات الرسالة التي أعلنها يوسف العظمة في وجه غورو، والسيف هو نفسه السيف الذي امتشقه يوسف العظمة في وجه الدبابات الفرنسية يوم ميسلون.

قد لا نضيف إليه مجداً حين نقول إنه بطل استقلالها، فهو رسول الله للعالمين والأمة التي تتبع نوره وتقتفي خطواته وتحج إلى ضريحه ربما لا تعرف شيئاً عن استقلال الشام وتاريخ سوريا، وهي تنظر إليه على أنه رسول السماء إلى الأرض وسيد الأنبياء وتاج الأصفياء وناصر الحق بالحق والهادي إلى صراط مستقيم، وأمام هكذا مجد فإنه لا تذكر في ألقابه أنه قاد فرقة من الكتائب نحو سوريا.

نحن لا هو، من يسعى لإثبات مجد قيادته لكفاح استقلال سوريا ودفاعه عن أحرارها، وأعتقد أنه مجد لكل سوري يؤمن بالحرية أن يرسم لوح الجلاء بداية من كفاحه عام 631 يوم جهز بنفسه جيش العسرة إلى تبوك ليصل رجاله بعد عامين اثنين إلى أسوار دمشق فاتحين مكللين بالنصر والغار.

سوريا مدينة لكفاحه التحريري في نيل نعمة الحرية، وهو تماماً جهاده الذي أعلنه في نص القرآن الكريم: في سبيل الله والمستضعفين في الأرض.

الإسراء والمعراج[5]

حوار في السماء من أجل الحياة في الأرض

المعراج والإسراء اسم لواحد من أكثر أيام الإسلام إلهاماً وإشراقاً، وقد أعاد الأدب العالمي رواية الإسراء والمعراج في رسالة الغفران لأبي العلاء 449 هجرية، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي 426 هجرية، كما أعاد صياغتها في القرن السادس عشر دانتي في الكوميديا الإلهية وكذلك ملتون في الفردوس المفقود.

---

[5] نشرت في جريدة الثورة 2008/7/25

لا تتسع هذه الزاوية للحديث عن المعراج والإسراء في تفاصيل الحدث الكبيرة، وظروف الإكرام التي وافى الله بها نبيه يوم المعراج، كما لا تتسع للجدل الذي يثار كل عام حول معجزة الإسراء والمعرج وهل كانت بالروح والجسد كما هو رأي الجمهور أم كانت مجرد رؤيا منام كما هو رأي عدد من كبار الصحابة فيهم عائشة زوجة الرسول ومعاوية بن أبي سفيان، وهو جدل لا بد من الإشارة إليه.
ولكنني أود التوقف هنا عند موضوع أجمعت كل كتب الرواية على ذكره في رحلة المعراج وهو موقف الرسول أمام الله والحوار القدسي الخالد الذي نقله الرسول، في محاورة الله حين فرض عليه الصلاة، وقد فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة، وفي سياق نص الحديث الشريف فإن النبي الأكرم وقف أمام الله ليبدي وجهة نظره بثقة قائلاً: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك!! وهنا يخفف الله عن الرسول خمس صلوات فتصبح خمسة وأربعين في اليوم والليلة، ولكن الرسول كمحام بارع ماهر شجاع: يطالب مرة أخرى بتخفيض عدد الصلوات ويتم تخفيفها خمساً وتستمر المطالبة ثم تخفف خمسا فخمساً إلى أن تستقر عند خمس صلوات في اليوم الليلة، يقول فيها الله قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.
وبعد........ فما معنى هذا الجدل الديني في الأرض في أمر جرت أحداثه قبل أربعة عشر قرناً في السماء؟
أرجو أن لا أبتعد كثيراً عن دلالات المعراج الكبرى عندما أستعرض أمراً دقيقاً ذا دلالة وهو مسألة فرض الصلوات التي تطرحها الروايات المتعددة في السنة النبوية وهو أمر بالغ الأهمية في وجداننا الإسلامي ، وفيها أن الرسول الكريم تلقى أمر الله سبحانه بخمسين صلاة في اليوم والليلة ، ومع أن المسألة هنا مسألة نصية في غاية الوضوح يتلقاها أصدق البشر عن الله مباشرة من دون أي سلسلة من الإسناد، ومع أن النبي الكريم أولى العالمين بقول سمعنا وأطعنا وهو كذلك، ولكن الرواية تمضي إلى معنى دقيق وهام، وهو أن النبي تشاور مع الرسول الكريم موسى عليه السلام في أمر الصلاة ، وأن موسى كان يقول له يا محمد لقد بلوت الناس قبلك وخبرتهم وإن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، وبوسعك أن تتصور إلى أي مدى يحب الله من الإنسان أن يكون حراً جريئاً في الحق، ويمضي الرسول الكريم إلى ربه فيسأله التخفيف فخمسون صلاة في اليوم والليلة شيء لا يطيقه الإنسان، وحين يسال الله ذلك يحط عنه خمساً، ثم عاد موسى يقول له قوله الأول فما زال به حتى رجع تسع مرت يطلب التخفيف من ربه ، وما زال محمد يرجع إلى ربه يحط عنه في كل مرة خمساً حتى بقيت خمس صلوات في اليوم والليلة!
هذه الرواية تتناولها بعض الأقلام بالجرح والتضعيف ولكنني أعتقد أن دلالاتها الباقية تجعلك مطمئناً إلى موثوقيتها وصدقها خاصة وأنها تقع في أعلى درج الموثوقية من رواية الإمام البخاري، وأنها توافق مقاصد الشريعة في إطلاق حرية الفكر إلى الغاية.
الواقع أن الموقف النبوي الشجاع يطرح سؤالاً في غاية الأهمية وهو: هل ندرك الأفق الكبير الذي منحه الإسلام للحوار والبرهان، بحيث يتاح لك أن تحاور الله نفسه، وتقدم حجتك ورأيك بالبرهان والتفصيل، ويتم من خلال الحوار تعديل المرسوم الإلهي بما يتفق مع مصالح الإنسان؟
بالتأكيد هو سؤال كبير، ولكننا نضعه في هذا اليوم الشريف أمام الاستبداد الذي قام بقمع الفكر الحر منذ قرون باسم الرب، في حين أنه يقرأ علينا في كل يوم سورة الإسراء وفيها خبر النبي الشجاع العظيم الذي تمسك بمعطفه أمام الله وراح يدافع عن رأيه وحجته إلى النهاية!!
بالتأكيد فإن الله لا يجهل الحجج التي ساقها النبي الأكرم وهو أعلم بعباده، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولكنه ببساطة أراد أن يشترك الإنسان في اقتراح الشريعة، وهو بالضبط ما فعله النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، واستجابت له السماء.

النبي الكريم يضرب لنا هنا أدق مواقف حرية الرأي في الإسلام وما ينبغي أن تكون عليه الأمة في وعيها بمصالح الناس ومقاصد الشريعة، هنا يحاور محمد ربه في مسألة تشريعية غير عادية إنها مسألة الصلاة، ومع أن البيان الإلهي كان واضحاً في خمسين صلاة فإن النبي الكريم عمد إلى الحوار والمناقشة مع ربه ابتغاء تحقيق العدالة المنشودة !!

من المؤكد أن الله سبحانه لا يجهل مصالح العباد وقدراتهم ولكنه أراد بصراحة أن يشرك الإنسان في اقتراح الشريعة وهو موقف متألق من منزلة الرأي الحر في الإسلام وهو معنى لا يمكنك تجاوزه ما لم تدرك تماماً حدود المدى الذي يدفعك القرآن الكريم إلى إدراكه.

إنني أحب هنا أن أضع هذا الموقف المتألق للرسول الكريم لنقارنه مع ما ساد في الثقافة المتخلفة أيام الانحطاط التي كانت تتعامل مع الإنسان على أساس أن دوره ينحصر في تلقي الأوامر الجاهزة من رجل السلطة ورجل الدين حيث كان الأول يحتكر إرادة الأمة والثاني يحتكر المعرفة عن الله، وكانت كثير من الزوايا تصرح في غياب المعرفة الصحيحة بمقاصد الشريعة أن السلطان ظل الله في أرضه، وأن أربعين عاماً من إمام جائر خير من ساعة واحدة بلا إمام وغير ذلك من صيغ الاستبداد، وأن أفضل طريقة لبلوغ مرضاة الله هي الطاعة المطلقة لشيخ الطريقة الذي يفترض أن تكون بين يديه كالميت بين يدي غاسله!!، وأن خطأ الشيخ خير من صواب المريد! ، وأنه لا تعترض فتنطرد!! إلى غير ذلك من الصيغ التي لا تشبه في شيء المعنى القدسي الذي تحملنا إليه رحلة المعراج.

مطلوب من المؤمن أن يفكر ويحاور، ولا يوجد في الإسلام تابو في وجه العقل، وليس من الإيمان في شيء أن تسير مغمض العينين، وأن تقفو ما ليس لك به علم، وأن تقول إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، إنه سلوك مصادم لإرادة الرسول الكريم الذي جاء ليخرج الناس من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن، وليقول للعالم هذه رسالة العقل والحجة والبرهان.

منذ قرأت حديث المعراج وأنا لا يغيب عني في كل صلاة مشهد النبي الكريم أمام ربه في الملأ الأعلى وهو يدافع عن مصلحة الأمة ، يحاور ربه ، ويقدم حججه كأعظم محام متألق يذكره الدهر، وهو لا يجهل أنه في حواره يقف أمام من يعلم السر وأخفى (ألا يعلم من خلق؟ وهو اللطيف الخبير) ، ولكنه رسم بحواره العظيم ملامح دين يدفع بالإنسان إلى أبعد مدى في حرية الرأي واحترام الحجة ورعاية مصالح الناس.

إن حوار المعراج حدث وقع في السماء ، ولكن المطلوب تكراره في الأرض كل يوم وهو المعنى الذي يؤكده حديث الرسول: الصلاة معراج المؤمن.

أياً كان المعراج، رحلة بالروح والجسد، أو رؤيا حق تعلم منه الإنسان، أواستغراق في غار تأمل، فإنه في النهاية حوار جرى في السماء من أجل أن تتعلم منه الأرض ثقافة العقل والحجة والبرهان.

المعراج والإسراء ... درس التوحيد[6]

من المؤكد أن الخلاف حول طبيعة الإسراء والمعراج لم ينته خلال التاريخ، وأن الخلاف حول وقوعها بالروح والجسد أم الروح وحده لم يتوقف أبداً ولم يكن هذا الجدل يثور بين المؤمنين والدهريين، أو بين العلمانيين والفقهاء، بل كان مثار جدل داخل الأسرة الفقهية، وكان الفقهاء والصحابة أنفسهم يثيرون هذا الجدل باستمرار، واشتهر عن عائشة ومعاوية والحسن القول بأن الإسراء والمعراج كان رؤيا رآها النبي الكريم، وبعيداً عن ترجيح الأقوال وموازنة الأدلة فإن ما أود التذكير به أن هذا الخلاف كان يبدأ وينتهي في إطار الرأي والرأي الآخر ولم يكن (كحالنا الآن) يقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين، أو ملحدين وموحدين، وكانت الأمة الإسلامية تتسع للمؤمن بالمعراج والمنكر له، والمؤمن بالإسراء والمنكر له، من غير أن ينتهي الجدل بتقسيم الناس إلى أهل الزيغ وأهل اليقين.
بل إن البخاري نفسه وهو أوثق الرواة والمحدثين يروي خبر المعراج على لسان الرسول الكريم ثم يقول : فاستيقظت فإذا أنا بالبيت الحرام، ويجزم الشراح للصحيح أن المعراج هنا هو رؤيا رآها النبي الكريم قبل بدء الوحي.
أما أمير الشعراء فقد حسم الأمر وتحدث ببيتين من شعره:

يتساءلون وأنت أطهر مرسل	بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما	نور وروحانية وبهاءٌ

كتبت مراراً عن رحلة الإسراء والمعراج، وكنت دوماً أركز على نقطة بالغة الأهمية في المعراج وهي الحوار مع الله، حيث كان النبي الكريم يراجع ربه في أمر الصلاة، ويسأله التخفيف حتى حط الله عنه من الصلوات ما شاء، وخففها من خمسين صلاة في اليوم والليلة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.
هذا اللون من الحوار لا يعجب بعض أصدقائنا، وقد ذهب بعضهم إلى رد الحديث بالكلية بوصفه يتضمن جدلاً غير مبرر مع الله، وتعارضاً مع ظاهر الآية : قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات والأرض، ولكن ما أميل إليه هو أن الحديث صحيح، سواء كان برؤيا منام أو بمعجزة صحيحة، وأن هذا الحوار في شأن تخفيف الصلاة مفيد وضروري، وهو يدعو إلى بعث حرية الرأي والحوار حتى مع الله سبحانه، وهو يكشف أيضاً عن قيمة الرأي والمشورة، ويكشف عن رغبة الإسلام في بناء حياة كريمة ورفض الرهبنة والانطواء والعزلة، وبناء المجتمع على أساس من الجد والعمل والتوازن في الحياة.

وبعيداً عن جدل الرواية فإنه ليس في تاريخ الإسلام يوم كان فيه الرسول الكريم أقرب إلى ربه من يوم المعراج والإسراء، حيث قدمت الآيات صورة النبي الكريم وهو يسري من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولكن اللافت هنا أن الآية تصفه بأنه عبد لله، سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعلى الرغم من جلال المشهد وهول ما فيه من ركوب السماء واختراق الحجب، ولكن الرسول لم يذكر هنا بأي من ألقاب الملك أو السلطان أو السيادة وإنما ذكر بوصف العبودية لله، وقد كان السياق أن يقال أسرى بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بمصطفاه، ولكن الآيات أشارت إلى أنه عبده، محض عبد لله.

---
[6] نشرت في جريدة بلدنا السورية 2007/8/12

وفي سورة النجم تشير الآيات إلى أن النبي الكريم رقى في السموات وأنه رأى من آيات ربه الكبرى وأنه دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وهو قرب لا يبتغى قرب أرقى منه أو أدنى إليه، فهو هنا عن يمين الرحمن، على بساط الحق عند ساق العرش، حيث لا يتصور أن يكون هناك مقام أعلى ولا أرقى، وهنا يجيء الخطاب القرآني بصيغة فأوحى إلى عبده ما أوحى!!
كان المفترض بالسياق أن يقال فأوحى إلى ضيفه ما أوحى، أو إلى رسوله أو نبيه أو مختاره أو وليه أو صفيه أو حبيبه، وكان من الوارد أن تستخدم تلك الألقاب التي نستعملها اليوم: نور عرش الله، أو أول خلق الله، أو صاحب الشفاعة أو الألقاب التي نهديها بدون وعي لعباد أمثالنا: قطب الغوث، مدرك الكون، صاحب الأفلاك، قطب العارفين، تاج الكاملين، إمام الملائكة، خاتمة المحققين، ولكن القرآن هنا يختار لفظ عبده، فما هو سر العبودية بالذات في هذين المقامين؟
إن القرآن الكريم أثنى على النبي الكريم في مواضع كثيرة بعاطر الثناء فسماه بشيراً ونذيراً وشاهداً وسراجاً منيراً، ولكنه هنا يبخل بهذه الألقاب جميعاً ويختار له لقب العبد رغم أنه في تلك اللحظة الضيف الأعلى عند الله!!!
إن القصد الإلهي من ذلك واضح وصريح وهو رفع أي شبهة للخلط بين العبد والرب، بين الإنسان وبين الله، ولما كان المعراج والإسراء يتضمنان إشارات هائلة لمنزلة غير عادية للنبي الكريم، فإن الله تعالى أراد أن تكون المسألة هنا بعيدة عن أي التباس، وأن يتأكد الجانب البشري في شخص الرسول والهدف بالطبع هو التأكيد على أن عصر الآلهة قد ولى، وأن هذا الرسول بشر جاء برسالة من الله وأنه لا يريد لنفسه منازل الآلهة التي عرفتها الأمم الأولى وهو محض عبد لله تعالى.
الأمر نفسه يشير إليه القرآن في قصة السيد المسيح حين حملت مريم العذراء من غير زوج، وأتت به قومها تحمله، وأجاءها المخاض إلى جذع النخلة وقالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً.
كل شيء يبدو مدهشاً في هذه الحكاية القرآنية الفريدة، مجيء إنسان بدون أب!! أن تحمل امرأة بدون زوج!! وبعد قليل ستأتي معجزة ليست أقل منهما إغراباً فالطفل الذي يلتف في المهد سيتكلم!! وسينطق بلسان عربي مبين، وهو حدث سيغير وجه العالم شئنا أم أبينا، وسيبدأ العالم كله التوقيت والتاريخ بدءاً من هذه اللحظة التي سيتكلم بها الغلام، وسيصبح تاريخ البشرية كله على قسمين: قبل الميلاد وبعد الميلاد!!
كل شيء هنا مثير للدهشة والهول، ومن حق هذا الفتى الناطق في المهد أن ينادى بأشرف الألقاب والأسماء كرسول وقائد ونبي وإمام ومخلص وموعود ومنتظر وشافع ومشفع، ولكن القرآن يذكره في هذه اللحظة التاريخية بأنه عبد لله، وتأتي الآية في سياق دقيق، وقبل أن يتحدث عن براءة أمه من الفحشاء التي يتهمونها بها تحدث عن وحدانية ربه: قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً.!!

السؤال هنا مشروع لماذا كان الإصرار هنا على وصف النبيين الكريمين برتبة العبادة لله؟
الهدف واضح هو رفع أي سبيل للاشتباه بتداخل الإلهي والبشري والتأكيد على عبودية الرجلين لله، والمساواة بين أبناء آدم على الأرض.

الحديث عن عبودية الرجلين في لحظة المجد الأعلى أكثر من ضروري، ولو كانت الأمة تدرك ذلك لواجهت بضراوة رغبات المستبدين في عبادة الفرد، ولألهمت الشعب أن يقاوم طبائع الاستبداد وأن يرسم بيده مصارع الاستعباد.

لقد كانوا أنبياء كبار يرسمون لوحة التاريخ ويكتبون مجد الدنيا، ولكنهم لم يكن يسمح لهم أبداً أن يكونوا أكثر من بشر في قافلة الإنسانية، يجوعون فيحمدون الله ويشبعون فيشكرون الله، ليس لهم دم أزرق ولا امتيازات صفراء، يمشون في الناس ولا يمشون فوق الناس، ويأكلون في الأسواق ولا يأكلون الأسواق، يصيبون ويخطئون، ويعلمون ويجهلون، ولكنهم يكافحون من أجل خير البشرية وخير الإنسان.

إني والله لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني.

قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون.

قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين.

الهجرة بين ضباب الخوارق وضياء السنن[7]

[7] نشرت في جريدة تشرين آذار 2001

حين أراد الهجرة لم ينتظر أجنحة الملائكة ليهاجر عليها ولم يركب صهوة البراق الذي تركبه الأنبياء, ولم تحمله الريح التي سخرها الله لسليمان تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص, ولكنه هاجر كبشر وكافح كبشر وقاد كفاحه بزنده الأسمر وإرادته الصابرة .
من يراقب رحلة الهجرة المباركة يدرك كم كان فيها من كفاح ومصابرة, وكم كان فيها من دراسة متأنية دقيقة لأدق التفاصيل اللوجستية والاحتمالات المتوقعة وإعداد الطوارئ التي اتخذها النبي الكريم, حيث أعد لكل شيء عدته, إنه لم يجر حساباته على أساس :
وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان وإنما أجراها على قاعدة: قم والمخاوف كلهن أمان.
لقد تأكد تماماً أن إرادة المشركين حازمة في قتله, ولهذا اختار الهجرة, وحين توقع أنهم سيطاردونه إلى المدينة قرر أن يذهب في اتجاه آخر ورسم خطته ليأوي إلى غار ثور جنوب مكة على طريق اليمن ريثما يفقد المشركون الرجاء من العثور عليه, وهكذا كان.
لم تكن الهجرة النبوية واحدة من الخوارق التي تستعصي على التكرار بل كانت حصيلة كفاح بشري حكيم يعتمد السنن الكونية ويقود نضالاً تحررياً واضحاً للخلاص الإنساني؟
كان يدبر كفاحه على أساس السنن الكونية، ولم يكن في شيء من حساباته يبني على الخوارق والعجائب.
من لم يضع ما عليه ما يحق له ما منه ما عنده ما بعده أهبا
ويسأل الله إنجازاً بلا سبب يجد ضياعاً على تضييعه حسبا
يفضل بعض الوعاظ أن يطرحوا هجرة النبي الكريم على طريقة غراندايزر الذي تلين له الجبال وتطوى له الأرض ويتكسر على صدره الرصاص والقنابل, وتسخر له الإنس والجن والوحش والطير, حيث يبدأ المشوار من باب النبي الكريم الذي ما إن خرج منه حتى نام المشركون الأربعون جميعاً وألقى على رؤوسهم التراب وهو يقول وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون, وبعد ذلك ذهب إلى الغار حيث خرق له جوف الغار وكان فيه بحر عظيم ومركب وثير وقبطان ماهر ينتظره, وحين أوى إلى الغار جاءت العناكب والحمام في لحظات فنسجت وباضت, (بالمناسبة لا يوجد سند صحيح لحكاية العنكبوت والحمامة) وحين بدأ طريقه في الصحراء كانت الغيوم تظلله والعواصف تجري في هواه, وكانت الخيل ذوات الأجنحة ترافقه في موكب ملائكي يركبها متى أراد, ومن اقترب منه فإن الأرض تبتلعه وحجارة السجيل ترجمه, وكل الذين حاولوا اللحاق به عميت أبصارهم, وكلما مر بقافلة من العرب كانت تخضر الأرض وتفيض لبناً وعسلاً , وحين تهم الشمس بالغروب فإنه يمسكها بيديه ويقول ردوها علي, إلى غير ذلك من العجائب والخوارق.
إننا نؤمن بقدرة الله سبحانه على كل هذه العجائب, وما ذلك على الله بعزيز, وقد كانت هذه العجائب لسليمان ويونس وموسى والله على كل شيء قدير, ولكن الله لم يشأ أن يمنح رسوله هذه العجائب, بل قال له حين طلبها ليفحم بها المشركين: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين!!
وقال له بعد ذلك ليظهر حكمة غياب المعجزة في مشوار الرسالة: وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون, وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً!!
مع أن الرسول الكريم كان مؤيداً بالوحي وكانت الأحداث الدقيقة التي يمر بها تستدعي تدخل الغيب ولكن المتأمل في رحلة الهجرة النبوية سرعان ما يتأكد له أن هذه الهجرة كانت في الواقع كفاحاً بشرياً تم الإعداد له وتنفيذه على أتم وجه.
لقد خرج من خوخة في الدار والمشركون يحيطون بداره من كل وجه، وترك مكانه على الفراش علي بن أبي طالب تمويهاً على المشركين، ثم توجه إلى دار أبي بكر فأخذ الزاد كاملاً

كما أعدته السيدة أسماء بنت أبي بكر ثم توجه صوب اليمن بعكس اتجاه المدينة فأقام في غار ثور ثلاثة أيام وكان عامر بن فهيرة يروح بأغنامه خلالها على آثار أقدامه ليضلل أعداءه عن الوصول إلى الغار ، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما كل يوم بأخبار المشركين إلى الغار ،
وبعد أن هدأ هياج قريش خرج النبي الكريم إلى سيف البحر حيث كان قد استأجر خبيراً بالطرق هو عبد الله بن أريقط ليقوده وصاحبه في رحلة الهجرة في شعاب الحجاز ووديانه.
وهكذا فإن أدنى تأمل يكشف لك أن النبي قد خطط لرحلة الهجرة بإحكام ودقة وعهد إلى ستة لجان بأدوار محددة وهي:
لجنة تمويهية قام بذلك علي بن أبي طالب إذ بات على الفراش للتمويه على المشركين وتأخير مطاردتهم المتوقعة إلى الصباح وهي فترة كافية للخروج من مكة.
لجنة تموينية كلفت بإعداد الطعام الكافي للمهاجرين وهي أسماء ذات النطاقين
لجنة مرافقة كلفت بمصاحبة النبي في سفره، قام بذلك أبو بكر الصديق.
لجنة تضليلية مهمتها إزالة آثار أقدام النبي وصاحبه حتى لا تتبعها قريش في مطاردة النبي الكريم وقد قام بها عامر بن فهيرة .
لجنة إعلامية مهمتها متابعة أخبار قريش وتبليغ النبي وصاحبه بها في الغار وقد قام بذلك عبد الله بن أبي بكر.
لجنة دلالية وهي عبد الله بن أريقط الذي كان دليلاً النبي في رحلته عبر الشعاب والوديان.
هكذا فإن ست جهات قامت بدورها على أتم وجه لتحقيق نجاح الهجرة النبوية على أساس من

الكفاح الإنساني.

لقد قام بتأمين زاده ولم ينتظر مائدة من السماء،وقام بالتمويه على أعدائه ولم يكتف بطلب الغشاوة على أعينهم والسد من بين أيديهم ومن خلفهم، وقام بتضليلهم عن غاره ولم ينتظر ريحاً ذارية تعفو آثاره عنهم ، وقام بدراسة تقارير عبد الله بن أبي بكر بدقة ليعرف تحرك أعدائه ولم يكتف ببيان روح القدس، واستأجر ابن أريقط ليدله الطريق على الرغم من أنه كان يستنير بنور الله ، واتخذ لنفسه رفيقاً وأنيساً على الرغم من أنه يعلم أن الله معه في كل حال**!**

لقد كان كفاحاً إنسانياً بامتياز, وقد أراد الله ذلك قصداً وحكمة, وبمتابعة سريعة لمهام اللجان ندرك أن الله أراد أن يرى في الهجرة كفاح الإنسان وسعيه, وحين أراد النبي الخروج وهم يحيطون بداره, خرج من خوخة في الدار (أي باب خلفي صغير) مع أن الله كان قادراً أن يطمس أبصار المشركين فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون من دون أن يعرض علياً لخطر الموت بسيوف المشركين, وفي الغار كان الله قادراً أن يزودهما بمائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منه, وأن تسير معه جفان كالجواب وقدور راسيات تجرها الملائكة على خيول بلق, في صحاف من زبرجد تزخر باللوزينج والفالوذج في أطباق الفيروزج حيث سار في الصحراء **!!**ولكنه لم يفعل وأمره أن يتزود بالزاد المتواضع الذي أعدته أسماء ذات النطاقين, أما آثار أقدامه وصاحبه فقد كان في قدرة الله أن يرسل الرياح الذاريات ذروا والحاملات وقراًَ والجاريات يسراً فيعفو آثار الأقدام كأن لم يكن, ولكنه أراد أن نتبع الأسباب والسنن,أما خبر القوم وما يبيتون فقد كان قادراً أن يوافيه بأخبار ما يبيتون عبر أمين الوحي جبريل, أو أن يوافيه بمحطة فضاء إخبارية تامة توافيه بأدق التفاصيل بالصوت والصورة وهو على ذلك قدير, دون أن يكلف ابن أبي بكر أخطار السفر بالليل وما يعتور قراءته من نقص أو سوء تقدير, ولكنه لم يفعل, أما دليله إلى طريق المدينة فقد كان الله قادراً أن يجعل له دليلاً من

نوره يهدي الله بنوره من يشاء, ولو شاء لجعل من أمامه نوراً ومن خلفه نوراً ومن بين يديه نوراً ولجعله نوراً على نور, ولكنه لم يفعل واختار أن ينهج في ذلك نهج الأسباب وعهد إلى الدلالة بخبيرها على الرغم من أنه لم يكن مسلماً, وأما المرافقة فلم يشأ الله أن يرسل للنبي خمسة آلاف من الملائكة مسومين يكونون بين يديه ومن خلفه وإنما أمره أن يتخذ صاحباً من الناس وقد اختار أبا بكر, وأما ما روي من العجائب والخوارق في الهجرة فغالبه حكايا جادت بها قرائح القصاصين وليس لها نصيب من السند الصحيح.

حين طالبوه بهذه العجائب أجابهم بكلمة واحدة: وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟

متى سنكف عن قراءة سيرة الأنبياء على أنهم كانوا ملائكة عجائبيين يمشون على الماء ويسبحون في الهواء وتسارع الأقدار في أهوائهم, ولا يعرفون طعماً للكفاح الإنساني؟ ومتى سندرك أن رسالة المهاجر الأول كانت كفاحاً بشرياً بامتياز خط به المهاجر رسالة القدوة للناس, وهي الرسالة التي شرحها جودت سعيد بكلمة واحدة: إنه النبي الذي جاء ليخرج الناس من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن؟

إنها بصيرة وهدى لحركات النضال التي يحملها إخلاصها وحماسها على المغامرة والتهور وانتظار عجائب السماء، وهو سلوك لا يعود بأي فائدة على النضال الاجتماعي، ويقحم مسألة الإيمان في تبرير العجز والفشل، وتحمل الناس بعدئذ عنت الحماس الهائج وما يحمله من ضياع وفوضى .

من العجيب بعدئذ أن يكون الخطاب التقليدي في فهم كفاح هذا المهاجر العظيم غائباً عن دور الإعداد البشري، يتحدث عن دلالات ذلك في ضباب الخوارق دونما توكيد على حضور السنن الكونية في هذا النضال الاجتماعي.

إن ما أوردناه هنا ينبغي أن يكون ملهماً في كل نضال اجتماعي وهو دليل واضح أن الإيمان لا يتلاقى أبداً مع الفهم الاتكالي للحياة الذي روجت له كثير من التكايا والزوايا في الماضي، وكثير من الفضائيات العربية في الحاضر التي تمارس مهنة صناعة النجومية لكثير من المشعوذين والخوارقيين الذين يرتدون كرافتات، ويبررون الاستسلامية والانهزامية على أساس من قراءة الغيب!

على فراش الرسول[8]

[8] نشرت في جريدة بلدنا 2008/1/13

علي بن أبي طالب أول فدائي في الإسلام، وهو وسام حق ناله أسد الله الغالب يوم الهجرة العظيمة حين عهد إليه الرسول أن ينام على فراشه إلى الصباح من أجل أن يموه على المشركين أمر خروج النبي الكريم من داره، وهو ما سيساعد في تأجيل خروج المشركين في مطاردة النبي الكريم عدة ساعات وهي ضرورية ليكون المهاجر قد غادر مكة..
ولكن مهمة أخرى عهد بها إلى علي وهي بالغة الدلالة نمر علها عادة مرور الكرام وهي أنه كان مكلفاً من قبل الرسول الكريم بإعادة الأمانات إلى أصحابها، فقد كان النبي الكريم أوثق أهل مكة عند قريش وكان اسمه الصادق الأمين، وكانت قريش تضع عنده الودائع، وحين أراد الهجرة رأى من واجبه أن يرد الأمانات إلى أصحابها فعهد بذلك إلى علي بن أبي طالب، وقد كلفه ذلك عناء الخطر الأكيد في سبيل الأمانة.
قال ابن إسحاق : وأقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده.
لم يكن النبي الكريم يجهل أن قريشاًَ ماضية إلى استباحة ماله ومال أصحابه فقد استباحت دمه قبل ذلك، وما إن خرج من مكة حتى وثبت قريش عبر أبي لهب ومن معه من بني هاشم فباعوا بيت الرسول ومتاعه وبيوت أصحابه وأملاكهم وراحوا يجهزون بها قوافل التجارة إلى الشام، واعتبروها غنيمة مشروعة!!
وحين عاد النبي الكريم بعد ثمانية أعوام يوم فتح مكة قالوا له يا رسول الله ألا تنزل في دارك قال لهم بمرارة: وهل أبقى لنا عقيل من دار؟؟؟
حين أقرأ هذا الموقف النبوي الكريم تأخذني الحيرة من فتاوى باستباحة مال الكافر ومتاعه، والكافر هنا كلمة مطاطة يمكن أن تشمل تسعين بالمائة من سكان الكوكب بدءاً من شارون وبوش إلى بوتين إلى شافيز إلى بانكي مون ثم إلى الشعوب الغربية بحالها، ثم تنسحب هذه الفتاوى على المخالف في العقيدة والمذهب ورأى العالم المشهد العراقي في استباحة الدم والعرض والمال في الحرب الطائفية المقيتة، وحتى لا نتهم بالتهويل فقد سمع العالم تلاوة سوداء لهذه الفتاوى عبر شاشات الإعلام الغربية حين بدأ يطل على الناس القرصان أبو حمزة صاحب اليد الشنكل الذي جعل منه الإعلام الغربي نجماً تلفزيونياً يملأ شاشات الفضاء الغربي ليمارس دوره في الدعوة إلى الله بالقنبلة والبندقية الحسنة، وحين سئل عن إقامته في الغرب بلاد المشركين لم يتردد في قوله: نحن نقيم هنا اضطراراً وهذه الأرض نجسة، ونحن ندخلها لقضاء الحاجة، وباختصار فإن أوروبا هي مرحاض المسلمين!!!
أشعر بالخجل وأنا أروي كلاماً ساقطاً كهذا، وكان من اللائق أن لا أذكر هذه الكلمة هنا لولا أن القرصان المذكور ذكرها في ثلاث محطات أوروبية وشاهدها نحو مائة مليون أوروبي وهو ما يعني تقريباً خمسمائة ضعف من يقرؤون هذا المقال على أقل تقدير!!
هل يمكن أن تكون ثقافة لئيمة مسمومة كهذه تنتمي إلى ثقافة المهاجر الأول الصادق الأمين، الذي ترك علياً على فراشه يتعرض لخطر الموت من أجل أن يرد الودائع لأصحابها:

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

إنها رسالة خالدة قرأها العالم في سلوك الرسول: لا يجوز أن يخرجك سلوك الجاهلية عن موقفك الرباني.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع[9]

لا يحتاج هذا النشيد الخالد لأي تعليق حتى تتذكر المهرجان الروحي الذي صاحب يوم وصول النبي الكريم إلى المدينة، حيث كانت الحناجر الطاهرة تطلقه في ثنيات الوداع من المدينة المنورة، وذهب ابن القيم في زاد المعاد أنها أنشدت عند عودة النبي من تبوك حيث ثنيات الوداع على طريق الشام، وفي الحقيقة فثنيات الوداع هي اسم لمشارف المدن، وكل مدينة لها ثنيات حيث ينتظر المستقبلون ويفارق المودعون، ويغيب المسافر بعدئذ في ثنية الوداع، فتحجبه الثنايا أن يراه المودعون بعد، ففي دمشق مثلاً فإن ثنيات الوداع تبدأ شرقاً بعد عدرا وتسمى طلوع الثنايا، وأما من جهة الغرب فهي في روابي الهامة حيث يطل القادم ويلقاه مستقبلوه، وللإنسان ثنايا في فمه هي أول ما يظهر من فرحه وبشاشته بالقادم.

وفي المدينة ثنيتان للوداع واحدة استقبل بها الأنصار النبي الكريم لدى قدومه مهاجراً والثانية استقبلوه فيها لدى إيابه من غزوة تبوك, وفي المرتين كان نشيدهم: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

وبعيداً عن هذا الدرس اللغوي، فإن هذه الأغنية هي أخلد غناء عربي على الإطلاق، وقد يكون أشهر غناء في الأرض، يغنيه دون مبالغة أكثر من مليار إنسان بلغة واحدة، فيما تغنى أناشيد الأديان بلغات شتى، وقد تم تلحينه وأداؤه على أكثر من ألف وجه وغنته خلال القرون ملايين الحناجر، ولا يزال يلهم القلوب الشوق والوصال، وقد جوهرته حنجرة سيدة الغناء العربي أم كلثوم .

هذه الأغنية تخلد في الواقع موقفاً للإسلام في تمجيد الفن واحترامه، فالمغنيات هنا كن فتيات من بني النجار، حملن الدفوف ووقفن يرحبن بالقادم الكبير، ولا أشك أبداً أن وجوههن كانت طافحة بالبشر، ولا بد أن تكون ملابسهن من البهجة والفرح بحيث تليق بمهرجان عظيم يفرح فيه الناس برسول الله.
باختصار فإنها أول ليالي الاحتفالية الكبرى التي ستجعل من بلدة يثرب الوادعة في الصحراء أهم مدينة وفي الأرض وسيصبح اسمها منذ تلك الساعة المدينة المنورة.
بصراحة الأغنية هنا لفتيات من المدينة، وقد أشار الغزالي إلى ذلك تحت عنوان: إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان، وأشار إلى مكان السنة والقدوة فيها، ومع أن المتشددين ينكرون هذا، ولكن البيهقي أورد الرواية بتفصيل عن أنس بن مالك، وهو أدق شهود الأيام الأولى للهجرة المباركة.
الرسالة التي حملتها أغنية طلع البدر علينا هي أن هذا الدين دين فطرة، ولكن أين هو مكان هذه الفتوى بين سلسلة فتاوى لا تزال إلى اليوم تحكم حياة المرأة في عدد من العواصم المتشددة، وتفرض عليها الغياب من الحياة، وتمنعها من المشاركة في الحياة، أو تفرض قيودا جد صارمة لمنعها من العمل والفرح، بل تنص فتاوى كثيرة على أن المرأة مأمورة بوجوب الإغلاظ في صوتها لئلا يطمع بها الناس، وأن عليها إذا ما تحدثت إلى أحد أن تضع يدها في فمها ليبدو صوتها قبيحاً مزرياً!! فهل بعد هذا من عبث وتنطع؟ ألا يذكرك هذا بفعل الجاهلية: ولآمرنهم فليغيرن خلق الله.

---

[9] نشرت في جريدة بلدنا كانون الثاني 2008

مرحى لفتيات المدينة اللاتي قدمن أكثر أغنية في الأرض شهرة وذكراً، ومرحى لهن أيضاً لأنهن رسمن صورة احترام فريد للفن في منهج الإسلام الأول، ومرحى لهن لأن أسمعن العالم أن الفن الطاهر البريء هو رسالة محببة عند الرسول وأنه صوت يحبه الله ورسوله.

المهاجر[10]

قراءة في صفحات الاغتراب

لم يصدق أنه سيضطر يوماً للهجرة من بلده, وحين أخبره ورقة بن نوفل في أيام النبوة الأولى بذلك سأل مستنكراً: أو مخرجي هم?? ولماذا يخرجونني وقد جئتهم بعز الدنيا وسعادة الآخرة?? ولكن ورقة بن نوفل قال له بكل مرارة: نعم! إنه لم يأت احد بمثل ما أتيت به إلا عودي ,وليتني أكون فيها جذعاً إذن أنصرك نصراً مؤزراً!!

ولكن الأيام جاءت بصدق ما توقعه ورقة, ومع أن مكانته في قريش كانت وفق ما أسمته قريش: الصادق الأمين, ولكن ما إن أفصح عن إشراقه وحدثهم بمشروعه التنويري حتى وجد نفسه محاصراً في شعب أبي طالب من قبل أعداء طالما كانوا يمدحونه ويثنون عليه من قبل, ومن ثم وجد نفسه محاطاً بأربعين من أشرار العرب كلهم يحد ذؤابة سيفه ليصيب منه مقتلاً, ويرجو أن يسبق إلى رأسه ينال مائة من الإبل الموعودة, وبدل وصفه بالصادق الأمين صاروا يقولون: ما نعلم سخلة في العرب جاء قومه بأشأم مما جاء به محمد!!

هكذا غادر مكة وبدأ مشواره مهاجراً ومغترباً, وكان علينا أن نتعلم من اغترابه كما تعلمنا من محرابه.

وكان حديثه في اغترابه بالغ التأثير في متبعيه فقد كان ينطق من معاناة وقهر, وهذه في الواقع سمة الشعر الاغترابي عموماً, فهو شعر صادق ومؤثر, وأذكر أنني حين قرأت موسوعة الشعر العربي التي أصدرها الأديب العزيز أحمد قبش, كنت أتخير من كل باب في مقاصد القصيدة عدداً من الأبيات التي أشعر أنها أكثر صدقاً أو عاطفة من سواها, وهكذا فقد جرى قلمي على تخير بعض الشعر وتجاوز بعض, وانتقاء الرجل قطعة من عقله, ولكن عندما وصلت إلى شعر الاغتراب لم أجد سبيلاً لشطب شيء منه, فالحق أن شعر الاغتراب كله يقع في أرقى منازل العاطفة الصادقة ومن العسير أن تجد سبيلاً لتجاوز أي قصيدة كتبها شعراء الاغتراب, وحين تتأملها بعاطفة صادقة ستشعر على الفور بأنها مجبولة بمدامع الأسى وأن سطورها مهما كانت منتظمة ووقورة فإنها تختزن صخباً صارخاً من داخل الذات يستعصي على الضبط والتحكم.

---

[10] نشرت في صحيفة الثورة السورية 19/1/2007

وشارك النبي الكريم في بكاء الوطن كما شارك في بنائه, وكان بذلك يعزز موقعه البشري كإنسان تتحرك في داخله عواطف الجوى, ورآه الناس يبكي حين سمع أصيل الغفاري يغني في وصف مكة, وفي هياج عاطفي دافئ قال: يا أصيل دع القلوب تقر!!

ولكن إلى جانب دروس الهجرة الكثيرة التي نسمعها كل يوم, فإن المعنى الذي يتعين أن ندركه هنا هو أن المدينة لم تكن في نظر النبي الكريم أرض انتظار يتعين عليه أن يمضي فيها سحابة هجرته حتى يؤذن له بالإياب, بل إنه مع أول يوم من وصوله كان يحمل للأرض التي هاجر إليها الحب الكبير, وفيها رسم صورة ضيف أديب يحترم ثقافة البلد التي يحط فيها ، ويحسن إليها ويخدمها, وتمكن من إيقاف الحرب الأهلية, ومضاعفة الرقعة الخضراء في المدينة, حتى صارت المدينة محجاً لكل راغب.

حين وصل إلى المدينة لم ينظر إليها على أنها قاعة انتظار يحشد فيها ما يمكن من حقد المظلوم لينتصف بها بعد من ظلم الظالم، ويوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، لقد كانت يثرب هي الأرض التي يتطلع إليها الرسول الكريم وأصحابه لبناء العالم الجديد، ولكنهم في الواقع ما إن وصلوا إليها حتى أصابهم بلاؤها واجتوتهم الحمى في يثرب، قالت عائشة: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض خلقها الله ، وكان بطحان يجري نجلاً، يعنى ماء آجنا أي متغيراً ، تعني بذلك أودية المدينة الثلاثة العقيق وبطحان وقناة.

وجعل الصحابة يتساقطون واحداً بعد الآخر في أجواء حمى يثرب، وكانت يهود قد اعتادت أن تلقي الآخام في وادي بطحان وهو يقع في مهب رياح الصبا، وهكذا فقد كانت الأوبئة تقع مباشرة في مهب أنوفهم، ولم يتمكن المهاجرون من التأقلم مع هذا الواقع الجديد فأصابتهم الحمى، وحفظت لنا الذاكرة آهات حسرى على ألسنة الصحابة تشرح ما كابدوه من حمى المدينة، وعلى لسان أبي بكر:
كل امرئ مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله
أما بلال فقد عبر عن حزنه وبؤسه بقوله:
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة   وهل يبدون لي شامة وطفيل
أما عامر بن فهيرة فكان يقول
لقد وجدت الموت قبل ذوقه   إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه   كالثور يحمي جلده بروقه

كانت آهاتهم هذه ترسم صورة ما كابدوه في الواقع البيئي الفاسد الذي تسبب فيه يهود المدينة عن عمد في إفساد هوائها وتلويث أجوائها وازداد ذلك مع كيدهم للمهاجرين ورغبتهم بإخراجهم من المدينة، وقد اشتدت تلك المحاولات كما ذكر المؤرخون فكان جار يهودي للنبي الكريم يتولى إلقاء هذه الأقذار على باب النبي الكريم نفسه!!
وكانت هذه الأجواء القاسية توقظ في نفوس الصحابة مشاعر الحنين إلى أرض مكة التي فارقوها على الرغم من قسوة الطبيعة وشظف العيش وفقد الأمن فيها:
بلاد ألفناها على كل حالة   وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
وتستعذب الأرض التي لا هوا بها   ولا ماؤها حلو ولكنها وطن
وكان حنينهم لمكة يأكل منهم أوبار الإبل، ويسكب مدامعهم ، ويبعث قرائحهم

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الرجال هنالـك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ومع أن رسالة النبي الكريم كانت تتجه إلى تصحيح علاقة الأرض بالسماء ودعوة الناس لعبادة الخالق وتطهير الأرض من الجبت والطاغوت، ولكنه أيضاً كان يحمل على كتفيه هم إصلاح البيئة التي كان يعيش فيها قومه، ولم يكتف هنا بأن رفع يديه إلى السماء ليقول اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وانقل وباءها إلى الجحفة!! بل أطلق مشروعاً شعبياً للإصلاح البيئي، وبدأ يقوم بنفسه وأصحابه بتطوير مجرى بطحان والعقيق، وانطلق أصحابه في وعي بيئي فريد لتطهير الأرض من ذلك الوباء، وحرق ما كان فيه من سبب الوباء، وتحويل مكب النفايات في المدينة باتجاه الجحفة حيث رياح الدبور التي لم تكن لتهب على المدينة، وأعاد بذلك العافية إلى ريح الصبا التي كانت تهب على المدينة من صوب بطحان والعقيق.
وبموازاة ذلك أطلق النبي الكريم مشروعاً زراعيا طموحاً عهد به إلى عدد من أصحابه الخبراء وأمر عليهم طلحة بن عبيد الله ، وأنجز طلحة حفر أربعة وخمسين بئراً جديدة في المدينة، وتمكن بدراسة بيئية دقيقة من إنشاء عدد من المصانع والجوابي لتخزين الماء ثم نظم مسيله في قنوات مدروسة، ورويت أرض المدينة لأول مرة بالقنوات بعد أن كانت تروى بالناضح من قبل، وأنجز على أرض المدينة خلال أعوام قليلة مضاعفة الرقعة الخضراء وزيادة المحصول الزراعي في النخيل، وكان النبي الكريم يباشر بنفسه تطور الحركة الزراعية وربما كانت القصة المشهورة حول تأبير النخل إحدى مظاهر مشاركته الدؤوبة لتطوير النشاط الزراعي والبيئي في المدينة.

على أن رعايته للبيئة تجلت في جانب آخر أشد دلالة وأقرب للمقصود حين أعلن عن مكة المكرمة أرضاً حراماً، والأرض الحرام هي في الواقع محمية بيئية حقيقية إذ يحرم فيها القتل والقتال، كما يحرم فيها الصيد واستفزاز الحيوان، ويحرم فيها قلع الشجر وقطع السدر، وهذه الشروط هي في الواقع إرهاصات مبكرة واضحة لنظام المحميات الطبيعي الذي لا بد منه لفهم حاجة الإنسان والمجتمع.
وعادة ما تغلب النظرة الميتافيزيقية حول الأرض الحرام فلا يفهم منها الناس إلا الأرض المقدسة، ولكن الواقع ليس كذلك فقد حرم النبي مكة أولاً ثم حرم المدينة تالياً، ثم أعلن عن وادي وج في الطائف أرضاً حراماً، وقال صيد (وج) وعضاهه حرم محرم لله ، ووج هو وادي الطائف، وقيل بل الطائف نفسها، والعضاه هي الشجر.
وكان كتاب رسول الله الذي كتبه لأهل الطائف: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين : إن شجر وج (الطائف) وصيده لا يعضد، أي لا يقطع، ومن وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله.

والواقع أنه ليس في المسألة أسرار، والأمر لا يرتبط مطلقاً ببيت معمور في السماء على حذاء وادي الطائف، ولا بأطيط سماء وج من طول ما يجأر فيه الساجدون وتسبح الملائكة، بل المسألة في غاية البساطة، فالمطلوب هو حماية أرض الطائف من الاعتداء البيئي، وحماية الدورة البيئية في هذا الوادي الغني نباتياً وحيوانيا من العبث والصيد الذي يخل بدورة الأرض.

إن القرآن الكريم قدم قراءة ذات دلالة حين يقول: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وفي آية أخرى ولا تعثوا في الأرض مفسدين.
إنه هنا يشير إلى الأرض بغض النظر عن سكانها من مؤمنين أو ملحدين، فالإحسان إلى الأرض واجب المؤمن، أما هداية الخلق فهو شأن الله سبحانه، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.
وفي إشارة واضحة إلى الفساد البيئي المدمر الذي تمارسه اليوم القوى العسكرية الكبرى في العالم، جاء ت الآية الكريمة كالنص على الشر النووي الذي يهدد العالم: وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.

لا أشك أبداً أن لو كان رسول الله بيننا اليوم لكان قد أعلن في كل يوم محمية طبيعية جديدة، وأنا أجزم أنه كان ماضياً لجعل كل مناطق الازدهار الحيواني والبيئي مناطق محمية، أو أرضاً حراماً، وهذا بالضبط ما حققه في الحواضر الثلاثة الرئيسية في أرض الحجاز، مكة والمدينة والطائف.

لقد أنجز النبي الكريم من وجهة نظري خلال عشر سنوات من الحكم الرشيد مسجداً واحداً وثلاث محميات طبيعية، واليوم بعد مرور أربعة عشر قرناً فإن السياق الطبيعي أن نشاهد في العالم اليوم من المحميات الطبيعية ثلاثة أضعاف المساجد في الأرض، ولكن الحقيقة أن المآذن ارتفعت في كل مكان في الأرض، وتركت الطبيعة ليفترسها جشع العمران وبطش الباطون، ولدينا اليوم مئات آلاف المساجد ولكن ليس لدينا إلا محميات بيئية متواضعة تتم حمايتها على استحياء ويتم افتراسها بشراسة وبطش، وها نحن أصحاب المنابر نعجز عن تحويل إرادتنا البيئية إلى مشاريع حياة وعطاء مع أن خطبنا لا تزال طافحة بالغضب والصخب وممارسة الوعد والوعيد.
تماماً كما قال إقبال:
منائركم علت في كل حي ومسجدكم من العباد خالي
وجلجلة الأذان بكل أرض ولكن أين صوت من بلال
وعند الناس فلسفة وفكر ولكن أين تلقين الغزالي؟

ا لـمـهـا جـر
رسالة في اللاعنف الإسلامي[11]

[11] نشرت في جريدة بلدنا السورية 2008/1/6

يرتبط اللاعنف عادة باسم الزعيم الهندي غاندي، وفي الإسلام باسم هابيل صاحب المقولة الشهيرة لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، وإذا قرأت تاريخ الأنبياء فالحاضر دوماً هو اسم المسيح عليه السلام، ولكن قراءة سريعة لرسالة الهجرة النبوية تجعلك على يقين بأن رسالة النبي الكريم في اللاعنف أوضح من شمس النهار.

في مكة وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً كان يواجه من قومه أعتى صدود وتكذيب وقهر، وكانت تحمل إليه أخبار الشهداء من أصحابه يقتلون في العذاب، أو يواجهون بؤس الموت وشدته، حيث وارى جثمان ياسر بن مالك وسمية بنت خياط في الثرى، واختنقت دمعته وهو يرى ما لقيه خباب بن الأرت وبلال بن رباح وقد خط فيهما العذاب الأخاديد، ولكنه على الرغم من هذا العناء لم يكن يفكر بالطريقة التي يفكر بها اليوم الشباب الثوري المتشدد الذي يعتبر أن المظالم هذه تخوله الانتقام من كل شيء، وتبيح له من الدماء ما يروي ظمأ الثأر.

كان أصحابه يقتلون أمام عينيه وكانت دموعه تغالب عينيه وهو يلحدهم في قبورهم، ويقول صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.
وعلى الرغم من أنه كان مدججاً بالأبطال فعن يمينه عمر وعن يساره حمزة، وبين يديه أبو عبيدة وطلحة والزبير وغيرهم من الفرسان الفواتك، وكان أمراً ميسوراً لو أنه أومأ إليهم ليقتلوا من يقف في وجه الرسالة، وكان بالإمكان أن يرسل من يغتال أبا جهل ويختطف أبا لهب وينكل بأبي سفيان، لم يفعل ولكنه اختار أمراً آخر.. اختار أن يرحل!! أن يرحل نعم ، وخطط لأول رحيل في السنة الخامسة من مبعثه حين أرسل ابن عمه وابنته وصهره إلى الحبشه يأمل أن يجد فيها مكاناًً آمناً يهاجر إليه، ثم أرسل مجموعة أخرى إلى الحبشة بعد أن اطمأن الأصحاب فيها، وفي المرة الثالثة حاول بنفسه ألهجرة إلى الطائف، وحين أخفقت هجرة الطائف بدأ يدرس أمر الهجرة إلى الحيرة، ولكن المحاولة الرابعة كانت في هجرته إلى المدينة وهي الهجرة التي تكللت بالنجاح.
لا أشك أبداً أنه كان أقدر الناس على ممارسة حرب العصابات على قريش وكان قادراً أن يحيل نهارهم إلى جحيم وكان لديه من الفدائيين والخبرات ما يستطيع أن يذيق قريش ألوان الموت والعذاب، ولكنه لم يفعل وآثر أن يخرج من مكة حاسراً غير دارع وعلى أطلالها قال كلمته المشهورة : اللهم إنك أحب بلاد الله إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.
لم يكن جباناً ولا خواراً، وكانوا إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق وجحظت الأعناق يتقون برسول الله فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وكان أكثر الناس يقيناً بالأجل، وكان يصلي صلاة مودع، ولكنه على ذلك كله اختار أن يهاجر سراً في الليل، من خوخة في دار أبي بكر ويأوي بعدها مختبئاً إلى غار ثور ثلاثة أيام يتجنب المواجهة مع قريش رجاء أن لا تراق قطرة دم.
إن ذلك كله لم يحل بينه وبين رسالته في الجهاد يوم أصبح دولة وسلطاناً، وأصبح ملتزماً أخلاقياً بحماية الناس ومواجهة أعداء المدينة، ولكنه أراد أن يقول للناس:
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

بقي أن نتساءل هل ستبلغ هذه الكلمات مبلغها في قلوب محبيه فيدركون معنى أن يكون النبي الكريم إمام اللاعنف ورائده، أم أن فريقاً منهم سينظرون إلينا بالريب، وسيعتبرون وصفه صلى الله عليه وسلم باللاعنف لوناً من التنكر لتاريخ البأس في حياته الحافلة بالجهاد؟

هجرة محمد وهجرة المسيح[12] **محمد حبش**

أما هجرة النبي محمد فلم تكن هجرة واحدة لقد حاول من قبل الهجرة إلى الحبشة وأرسل أصحابه إليها، وتردد مراراً في اتخاذ قراره أن يكون مهاجره إلى غير أرض العرب.
الهجرة الثانية التي هم بها النبي الكريم كانت إلى الطائف ولكن أهل الطائف كذبوه وأخرجوه وحاربوه ووجد نفسه وحيداً شريداً عند قرن الثعالب.
والهجرة الثالثة التي حاولها كانت إلى الحيرة حيث مضارب بني شيبان من المناذرة وبعد تشاور عميق مع هانئ بن قبيصة والمفروق بن عمرو والمثنى بن حارثة الشيباني قرر النبي تغيير وجهته عن الحيرة، والتقى بعد ذلك بالرعيل الأول من أهل المدينة المنورة الذين رأوا فيه البشائر الموعودة في تاريخ الأنبياء وأنه الرسول الخاتم الذي يجمعهم عليه الله بعد شتات وحروب وفتن استمرت أكثر من مائة عام.

اشتهرت هجرة النبي محمد ولم تشتهر هجرة السيد المسيح، ولم تكرس كإحدى عجائبه، ولكننا معنيون هنا في الشام الشريف بالحديث عن هجرته، فقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى بربوة ذات قرار ومعين.
ومن المؤكد أن السيدة العذراء مريم حين ضمت إليها وحيدها الآتي من الله بغير رجس ولا دنس ولا خطيئة، حملته فانتبذت به مكاناً قصياً، والمكان القصي هو بقعة بعيدة في الأرض أرادت أن تسلم به من بطش اليهود الذين كانوا يكيدون للسيد المسيح لقتله قبل أن يشتد عوده ويبشر برسالته.
أين هاجرت مريم؟ التفسير يدور حول ظاهر الآية الكريمة: وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين، تقول رواية إنها ذهبت به إلى مصر وتقول الأخرى إنها ذهبت به إلى الرملة بأرض فلسطين، أما الرواية الثالثة فقد أوردها سعيد بن جبير ونقلها مالك في الموطأ وابن عساكر في تاريخ دمشق، وهو أن الربوة المذكورة في القرآن الكريم هي ربوة دمشق، وهي ربوة كما يقول ابن عباس على مسافة ميلين من غربي دمشق عند جبل يقال له النيرب.

إنها دمشق! مهاجره حين كان طفلاً وموعده حين يعود كهلاً نبياً ويبشر العالم برسالته الباقية، تماماً كما وعد النبي الكريم والذي نفسي بيده يوشك أن ينزل فيكم المسيح عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق يتهادى بين مهرودتين
إنها عقيدة كل مسلم في الأرض وليست فقط اعتقاد أهل القيمرية أو القباقبية أو الجورة أو باب شرقي، إنه رصيد كبير للشام الشريف أن يكون السيد المسيح حاضراً في تجلياته في ضمائر أهل الشام وآمالها وأمانيها.

لماذا يهاجر الانبياء؟؟ أليس من سخرية القدر أن الرجل الذي جاء قومه بمجد الدنيا وفوز الأبد يجد نفسه ذات مساء يهرب من خوخة في دار أبي بكر ، ثم يتسلل لواذاً على رؤوس أصابعه

[12] نشرت في جريدة الثورة السورية 2008/12/26

ويتجه عكس ما كانوا يرصدون ليأوي إلى غار ثور في بطن الصحراء لا فرصة لديه لينبس ببنت شفة صامتاً في بطن غاره ليسلم بعنقه وروحه من بطش حراس الإسطير من جنود الكعبة وسدنة البيت الحرام الذين لم يجدوا قربة إلى الله أفضل من إراقة دمه في البلد الحرام!! وراحوا كالمجانين مسعورين يذرعون الصحراء جيئة وذهاباً للبحث عن رجل لم يمس أحداً منهم بسوء ولم يظلم أحداً في درهم ولا دينار، لم تكن حريهم عليه إلا استجابة لنداء الكهنة الغيورين على البيت الحرام الذين لم يروا فيه إلا مجدداً هرطوقاً لا يعبأ بثوابتهم البالية!!
قد نفهم بتكلف عسير لماذا يطارد حراس الدين القرشي خطا محمد، ولكن الأشد عجباً من ذلك هو مطاردتهم للفتى الناصري الذي لم يكن آنذاك إلا أغنية دافئة غنت بها شفة الحياة، وبشارة من أمل جرت على ألسنة الوجود، ولكن كل ما جاء مع الفتى الناصري من عجائب ومع أمه العذراء لم يشفع له من غضبة الإرهاب الديني اليهودي الذي طارده بسيوف مصقولة لئيمة تشتاق إلى دمه، وهو برعم فرح بريء ووجد فتى المغارة نفسه يهرب في حجر أمه بين مغارات تنتهي به إلى ربوة ذات قرار ومعين.

لماذا يهاجر الأنبياء؟ لأنهم طليعة المجددين في الأرض وليعلم الذين ينهجون على خطاهم أن مسيرة التنوير لن تكون على البسط الحمراء والفرش الوثيرة، إن تغيير المألوف أشد من ضرب السيوف، وكل تجديد في الأرض سيواجه من قبل حراس الإسطير بالغضب الأحمر الماحق.

من يصدق وهو يرى مشهد الطوفان البشري الهائج الهائل القادم من أركان العالم الأربع إلى مكة، يهللون ويكبرون ويقبلون تراب مكة، ويغسلونه بمدامعهم وأشواقهم، ويغتسلون بمائها طهراً ويأخذون بمعالمها شماً وضماً، من يصدق أن الرجل الذي جاء قومه بهذا المجد وأيقظ اسم قريتهم الهائمة في الصحراء لتكون سبحة حب وقدس على ألسنة العالمين!! من يصدق أنه وجد نفسه طريداً شريداً من مدينته يطارده قوم قساة غضاب يضربون بظبا سيوفهم في أثر وجهه هاتفين غاضبين باسم الرب؟؟

من يصدق أن الرجل الذي جعل من فلسطين مدينة الله، تذكر مع الطهر والنبالة والقداسة، وأرسل ضياء الأرض المقدسة في الدنيا ليبدأ العالم بتاريخ ميلاده وتنتهي الدنيا عند آثار خطاه، من يصدق أن هذا العملاق الهائل وجد نفسه شريداً طريداً بين جبال فلسطين، ثم وجد نفسه يقاد موثقاً إلى خشبة الصلب ليعلق بين لص وقاتل، في إرادة شريرة قذرة لإنهاء أسطورته مع القتلة والبلطجية والحثالة ؟

إننا نقرأ الحكاية من فصلها الأخير، نقرؤهم وهم يمتلؤون مجداً ويسكنون في الضمائر، ولكننا قل أن ننتبه إليهم وهم يفرون مطاردين فزعين بأرواحهم من سيوف طائشة طالما قعقعت باسم الرب وانتشت على أثباج الخيول إرضاء لأمر إله غاضب حقود يدفعهم دوماً بوصيته في قتل كل هرطوق مارق.
لا أحد عبر عن هذا المعنى الدقيق أبلغ من علي عزت بيغوفيتش حين عقد فصلاً خاصاً بعنوان: الهراطقة والأتباع، وقال مباشرة: الهراطقة هم المؤمنون حقاً لأنهم دفعوا ثمن ما يؤمنون به، والأتباع هم أقماع القول يرددون ما لا يفقهون.

أغنية الهجرة طلع البدر علينا وما رافقها من بهجة وفرح كانت في جانب واحد من المشهد، ولكن المشهد الثاني كان يغلي بإعلان صارم باسم الرب أن مائة رأس من الإبل ستدفع باسم

الرب لمن يأتي برأس هذا الهرطوق الضال المسمى محمد حياً أو ميتاً، وأن ذلك كله سيتم فداء لوجه الكعبة المعظمة!!

أغنية المسيح التي سمعها رهبان المجوس وبشروا بها مع نجمة الفجر كانت جزءاً واحداً من المشهد، وفي الطرف الآخر منه كان خطاب غضب أحمر يعصف برؤوس الكهنة ويشحذ سيوفهم من أجل الخلاص من طفل الناصرة الجالب للمتاعب، وهو غضب سيظل يلاحق الفتى الناصري من ناد إلى ناد إلى أن تنتصب له خشبة الصلب، وحين يتردد بيلاطس في صلب المسيح ويقول لهم خذوه أنتم واصلبوه لأنني لم أجد له علة!! يهتاج الدهماء من الناس دفاعاً عن الدين ويطالبون بيلاطس بالعمل بإرادة الناموس كما شرحها الكهنة المخلصون وما ان دفع بيلاطس المسيح لليهود ليصلبوه حتى اخذه الجند وجمعوا كل الكتيبة حوله، فخلعوا عنه ملابسه وألبسوه رداء قرمزياً، وضفروا من الشوك إكليلاً على شكل تاج ووضعوه على رأسه، وقصبة في يمينه. ثم أخذوا يهزأون به ويبصقون عليه ويضربونه على رأسه. ثم ألبسوه ثيابه ومضوا به ليصلب.

بعد ليلة طويلة قاسية في البستان وأمام حنان وقيافا، ويوم صعب أمام بيلاطس الوالي وهيرودس الملك، وبعد الحكم بالصلب خرج المسيح حاملاً صليبه في طريقه إلى الجلجثة. كان الطريق وعراً ضيقاً مليئاً بالأحجار والحفر. حمل الصليب على كتف ممزق من سياط الجلادين وظهر مليىء بالجروح والكدمات. ولضيق الطريق وتعب الجسد ووخز الجروح سقط المسيح بصليبه على أحجار الطريق عدة مرات.

طريق الجلجثة سيظل محفوراً في ذاكرة الأمم ومع أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، ولكن مشهد الشافع العطوف الممتلئ رحمة وحباً الذي يدفعه جنود قساة بأمر الناموس السماوي سيبقى في ذاكرة الأجيال بياناً لما ينبغي أن يدفعه المجددون في مشوارالتغيير.

كان هناك كفاح طويل، ودرب آلام وطريق جلجثة وغار ثور ووثيقة حصار ظالم معلقة في جوف الكعبة قل أن تطل فتيات المدينة بوجوههن البريئة الصادقة ويغنين أنشودة العالم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

ألف درس في رسالة التجديد تقدمه دمشق في هجرة محمد وهجرة المسيح، وهي حقيقة يشرحها علم سوريا بنجمتيه الخضراوتين: نجمة لمحمد ونجمة للمسيح.

الرسول عاشقاً
كان يحمل على عاتقيه هموم العالم ولكنه أيضاً كان يعرف الجوى والنوى والسهاد والسهر، وكان يتحدث إلى زوجاته كعاشق من الطراز الدافئ، وقد تحدثت العرب عن حبه لزوجاته الطاهرات، وكان في الواقع يؤكد ذلك الحب الحلال سراً وجهراً.

وكانت حياته ﷺ مع أزواجه على غاية ما ترتجيه النساء من الود والحب، على الرغم من همومه ومسؤولياته الكبيرة التي يفترض أن تأخذ عليه سائر شؤونه.

واشتهر حبه لخديجة حتى كان حديث الرواة، حيث كانت خديجة تدرك بثاقب نظرها حجم رسالة النبي الكريم، ومن اللحظة الأولى لإرهاص الوحي قالت له كلمتها الخالدة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتحمل الكل وتنصر المظلوم وتعين على نوائب الدهر.

وحين فرض عليه المشركون الحصار في شعب أبي طالب كانت خديجة إلى يمينه في الحصار، وذاقت معه النوى والعناء، ورق عظمها وربطت على بطنها الحجز والحجزين، وحين رفع الحصار بعد عامين ونصف كان الوهن قد أخذ منها كل مأخذ، وودعت الحياة في يوم مشهود ربما كان أقسى الأيام في حياته.

حزن رسول الله على خديجة حزناً شديداً حتى خشي عليه، وقد أعلن العام كله عام حزن وألم، وعزف عن النساء كلهن، ولم يكتب له بعد ذلك الزواج إلا بعد أن أصبح في المدينة.

وقد عاشت خديجة في ضميره حكاية حب مقدس طهور يشتاقها وتشتاقه، وعلى الرغم من فارق السن البين بينهما فإن سهاد قلبه لم يعرف الرقاد وظل يتحدث بطهر وتوق عن القلب الذي احتضنه في بداية مشروعه الرسالي، وحتى بعد رحيلها بسنوات طويلة كان يحسن إلى صديقاتها ويردد ذكراها، ويحسن في أرحامها، وكان يصرح بذلك لكل أحد، ولم يكتمه حتى أمام عائشة التي كانت أيضاً حبه وشوقه وثمرة فؤاده، وحين عرضت بها ذات يوم قائلة ما تذكر من عجوز من عجائز قريش هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها قال بحزم على الفور: كلا والله!! ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس وواستني بمالها ورزقني الله منها الولد دون سواها!!

كان من العسير أن ينسى، وكيف له أن ينسى حبه الكبير، وشريكة كفاحه ودربه، وفي

يوم الفتح الأعظم دخل النبي الكريم أرض مكة المكرمة، ظافراً مكللاً بالغار، تحف به الأبطال من كل وجه، وتعلقت به أبصار الناس، لقد اكتمل انتصاره والآن سيأوي إلى مكان ما في مكة ليكتب مشهد العالم الجديد بعد سقوط الوثنية وقيام التوحيد، وأقبل عليه الرجال من كل وجه يقدمون له المطارف والحشايا ويفرشون له البسط الحمراء لينزل في قصورهم ونواديهم، ولكنه كان مدهشاً وعجيباً !! لقد عاف ذلك كله، وأعرض عن مشاهدهم وزخارفهم وبدأ يفكر في اختيار قبة نصره، ويا لها من أرض سعيدة تلك التي ستنصب فيها قبة نصره، وحين طاف بالمشاهد المقدسة من الركن والمقام والحطيم والملتزم، والشادروان والميزاب وزمزم والصفا والمروة وجبل النور اغرورقت عيناه بالمدامع، ورآه الناس يضرب آباط راحلته ويسير شمال البيت ميلاً أو بعض ميل، وهناك عند حجارة سود في مقبرة الحجون أمر أن تنصب خيمة انتصاره إنه قبر خديجة!!!

أراد أن يقول للعالم إنها كانت شريكة كفاحي ومن حقها اليوم أن تكون شريكة نجاحي، إنها شريكة الصبر ومن حقها أن تكون شريكة النصر، وكتب بمدامعه رسالة للعالم عند مقبرة الحجون: هنا ترقد الحبيبة التي جعلت عناء روحي ربيعاً لا يذبل، إنها حكاية الحب الذي أشرق في الأرض وأينع في السماء.

كان عسيراً أن يستأنف حباً جديداً بعد عائشة، ولكنه كان بشراً، وأمضى في النوى والأسى أكثر من ألف يوم، لا تفارق ذكرى خديجة ضياء عينيه، حتى جرب حباً جديداً في فتاة واعدة موهوبة منحته حبها وشبابها فبادلها حبه ومجده، كانت هذه الفتاة الهائلة عائشة بنت أبي بكر.

لم تكن من ذلك النوع الذي يستسلم لإرادة الرجل، وكان مدهشاً أن تمتلك التمرد حتى على رسول الله، ومراراً بادلته حبها وشوقها، حين تحظى بوصاله، ولكنها كانت تطلق غضبها وانفعالاتها حين كان ينشغل عنها، وعلى الرغم من أنها تعلم مكانه في رسالة النبوة ولكنها كانت تتصرف كامرأة، وتطالبه أن يمنحها حقها كامرأة، ومراراً قالت له بغضب" أنت الذي يزعم الناس أنك رسول الله؟؟؟ وكان يجيبها بحنان: أفي شك أنت من هذا يا أم عبد الله!!

وكفتاة ثائرة كانت تطلق زفرة غضبها حين تشعر أن أنوثتها في امتحان، وكانت تمارس الغضب والهجران والصدود كما تفعل كل فتاة تناضل من أجل فؤاد زوجها، وكان ينظر بحنان إلى عاطفتها المشبوبة ويحاول أن يرتق جراحها، ولا بأس أن أهديك هنا هذه الأبيات اللطيفة التي نظمتها لموقف فريد رواه عنها الإمام أحمد بن حنبل والإمام الترمذي:

عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا عائشة

ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة ترفعين صوتك على رسول الله؟ فحال النبي بينه وبينها، ثم خرج أبو بكر فجعل النبي يترضاها وقال: ((**ألم تريني حلت بين الرجل وبينك؟**)) ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى فسمع تضاحكهما فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما.

وفي رواية أخرى للترمذي: عن عائشة أنه جرى بينها وبين النبي الكريم كلام وخصام حتى أدخلا بينهما أبا بكر حكماً، واستشهده، فقال لها النبي ♏ يا عائشة تكلمين أو أتكلم، فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، وفي رواية قالت: اتق الله يا رسول الله ولا تقل إلا حقاً، وقد أغضب ذلك أبا بكر حتى هم بضربها فجعلت تحتمي بظهر النبي الكريم من غضب أبيها، وما زال به يهدئه حتى خرج، فقال لها النبي حين خرج: كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟.. ثم دخل أبو بكر عليهما بعد أيام فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.

روى الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلِ ... في المسندِ الموثّق المسلسلِ
عن أمِّنَا عائشةَ الصديقة ... قالتْ وكلُّ قولِهَا حَقِيْقَة

أكثرتُ للنبيِّ في الكلامِ ... لا بدَّ في الزواج من خصَامِ
وصرتُ بعدُ كلّما دعاني ... أعرضْتُ حتى لم يَعُد يراني
وصار يدعوني على استعطاف ... وصرتُ كالتنوينِ للمضافِ
وطالَ هجري والنبيُّ صابرُ ... يهفو لهُ قلبي ولا يكابرُ

فقال مهلاً أمَّ عبدِ الله ... الصلحُ خيرٌ من خصامٍ واهي
لا بدَّ من شخصٍ يكونُ حكما ... يرضى كلانا حكمه ويُلزما

فقال هل ترضينَ ما يقضي عُمَرْ ... قالتْ معاذَ اللهِ بل أرضى بالقدرْ
فقال هل أدعو لها عثمانا؟ ... قالت: وما يدريه ماذا كانا؟

فقال هل ندعو إذن عَلِيًّا؟ ... قالت: أعوذُ أن تكونَ تقيًّا

فهل أبو بكرٍ يحلُّ المشكلةْ؟ قالت: نَعَمْ أبي لكلِّ معضلةْ

فأرسلَ المختارُ للصّديقِ تعالَ يا ملاذَ يومِ الضيقِ

وجلسَ الصدِّيقُ للتحكيمِ وجلسا كالخصمِ والخصيمِ

وبدأ النبيُّ يحكي ما حصل مبيناً أسبابَ ذلكَ الزَّعلْ

فقامت الفتاةُ في هياجِ قائلةً: أعْرِض عن اللّجاج

وقلْ صواباً واتَّقِ الخِلا ق ا واحذرْ فإني أكرهُ الشّقاقا

فدُهِشَ الصديقُ مما سمعا واصفرَّ لونُ الوجهِ منهُ فَزِعَا

ولَطَمَ الفتاةَ باليمينِ وقال يا قليلةَ اليقينِ

لمثله يُقالُ قلْ صَوابا أيكذِبُ المختارُ إن أجابَا

وهَمَّ أنْ يبطشَ بالصبيَّةْ فاتَّخَذتْ ظهرَ النّبي حميَّةْ

وأمسكَ النبيُّ كفَّ صاحبِهْ مستشفعاً يرجوهُ لِينَ جانبهْ

أقسمتُ باللهِ عليكَ جاهدا دعها فإني كنتُ فيها شاهدا

واتركْ لنا أمرَ الخصامِ بيننا نقضيهِ صُلحاً تحتَ سقفِ بيتنا

ولم يزلْ به إلى أن خرجا من حيثُ كانَ قبلَ ذاكَ وَلَجَا

فعادَ يدعوهَا إلى الوفَاقِ فانتبذتْ منهُ على شِقَاقِ

فابتسمَ النبيُّ ثم قالا سُبحانَ من يحوِّلُ الأحوالا

قد كانَ ظهري حِصنَكِ الحصينا والآن أدعوكِ فلا ترضينا

ولم يزلْ يكرِّرُ المداعب ةْ ملاطفاً حتى أتته تائب ةْ

ودمعتْ من حبِّهِ عيناها توسلاً ترجو بأن يرضاها

قال أبو بكر أتيتُ بعدها وجدتُه يأكل شهداً عندها

كلاهما في غايةِ السرورِ والأنسِ والحنانِ والحُبُورِ

فأدركتني لهفة المغبونِ   فقلتُ والعتابُ في عيوني

ألم أكنْ دعُيتُ في الخصامِ   فكيفَ لا أدعَى إلى الطعَامِ

فنظرَ النبيُّ للصدِّيق   ةْ   وضَحكا لروحهِ الرقيقةْ

وقالَ أهلاً سيدَ القضاةِ   ومُصلِحَ الأزواج والزوجاتِ

أنتَ لنا في الحرب والسَّلامِ   رفيقُ صدقِ البَدْءِ والخِتَامِ

لم تكن يوماً بلا سابقة، لقد كانت حدثاً يتكرر كل يوم، ولا بد في الحب من ألم النوى، وكان الرجل الذي يحمل على عاتقيه هموم العالم يعالج هوى قلبه بالحب والحنان.

وتحدث عائشة: سابقني النبي صلى الله عليه وسلم فسبقته ما شاء، حتى إذا رهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: يا عائشة، هذه بتلك

وعن عائشة قالت: كان رسول الله يعطيني العظم فأتعرقه، ثم يأخذ فيديره حتى يضع فاه على موضع فمي

وكانت عائشة بعدئذ تعلم النساء فنون الحب، وتتصدر النساء تعلمهن وسائل الوصول إلى قلوب أزواجهن، جاءت بكرة بنت عقبة فسألت عائشة عن الحناء (والحناء هو الماكياج القديم كانت النساء تزين به وجوههن وأيديهن) فقالت: شجرة طيبة وماء طهور، وسألتها عن الحفاف (وهو أن تحف المرأة الشعر عن وجهها نتفاً بخيطين) فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي عينيك فتصنعينهما أحسن مما هما فافعلي.

وكذلك فإنه ♏ لم يكن يكتم حبه لعائشة بعدئذ، وعلى الرغم من مسؤولياته الكبيرة في الحياة العامة فإنه كان يدخل إلى داره بقلب دافئ، وكان الناس يعرفون حبه لعائشة حتى أنهم كانوا يهدونه الهدايا في ليلة عائشة ابتغاء رضاه، وحين سأله عمرو بن العاص ذات يوم: من أحب الناس إليك؟.. لم يتردد لحظة في الجواب أنها عائشة!..

إني لا زلت أشعر بالدهشة من تلك الروايات الكثيرة التي قدمتها زوجات النبي♏ بعد موته للناس، تتحدث فيها عن حياته العامرة بالحب، وعن مشاعره الصادقة تجاههن على الرغم من طبيعة حياته الصاخبة بالمسؤوليات الجسام، وعلى الرغم أيضاً من الحياء الذي يغلب على المرأة، ولكن إصرارهن على رواية تلك الأخبار يعكس لك أي دروس في الحب كانت تلك السيدات اللاتي نشرها في المجتمع.

فعائشة مثلاً تروي أن النبي كان يقبلها وهو صائم ، وقالت مرة: كان يمص لساني وهو

صائم وقبلّها ثم قام إلى الصلاة، وأنه سابقها مرة فسبقها وسابقها مرة فسبقته، وأنه كان ينازعها الطاس في الحمام، وأنه رآها يوماً تشرب من كأس فجعل يمم بشفتيه موضع شفتيها، ومراراً ذكرت أنه أوى إلى فراشي ولامس جلده جلدي..

وكان هذا الحب الغامر يعالج تلقائياً كثيراً من المشاكل التي تنشأ بين الزوجين عادة، ورب موقف ظهر من عائشة فيه ما لا يغتفر، ولكن كان يتجاوز عن ذلك بالحب، قالت له ذات مرة غاضبة: أنت الذي يزعم الناس أنك رسول الله؟.. فكان يتلقاها بحنانه وحبه ويقول: أفي شك أنت من هذا يا أم عبد الله؟

وقد صرحت أم سلمة بما كان بين عائشة والنبي من حب، حتى أنه كان يقبلها وهو صائم وقالت: «إنه لم يكن يتمالك عنها حباً».

إن إقدام نساء النبي على رواية أخبار خاصة بهذا التفصيل، واجتهادهن في وصف مشاعر حميمة جد خاصة واضح في إرادتهن بعث مثل هذه المشاعر في فراش الحلال، وفي علاقة الزوجين والخاطبين.

وحين كان يذكر عائشة لم يكن يتردد في تسميتها بالحبيبة وكان السلف إذا رووا عن عائشة يقولون حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله، وقرة فؤاده.

وكان يحمل مشاعر خاصة للسيدة عائشة بنت أبي بكر، فقد تزوج نساءه جميعاً ثيبات - مطلقات أو أرامل - وكان معنى إحسانه وعطفه عليهن واضح بيّن، أما عائشة فقد تزوجها وهي بنت تسع سنين، وهاهو يفارقها وهي بنت ثمانية عشر عاماً، تتفجر حيوية وشباباً، وهي على قدر من الموهبة والذكاء والجمال كبير، ولكنها وَهبَتْ شبابها كله من أجله، وها هي على وشك أن تستأنف حياتها الطويلة وحيدة حزينة دون ريحانة قلبها وقرة فؤادها الذي سيمضي إلى الرفيق الأعلى، وقد حرم عليها الزواج من بعده.

ولاشك أن المجهول الذي ينتظرها كان يعصف بفؤادها البريء، وقد حانت ساعة الحقيقة حيث ستفقد عيناها وجه حبيبها محمد أينما ولت وجهها مع أنه يسكن فؤادها ولكن من دون أن تستطيع الأنس بدفئه وحنانه، ومن دون أن تشرق أيامها بمحياه.

وكان كلما اشتد به المرض يسأل صحبه من حوله: (**أين أنا اليوم**) استعجالاً لليلة عائشة؟ فقد كان يرقبها وينتظرها، يرجو أن يعوضها بعض ما

ستفقده، واستأذن أن يمرض في بيت عائشة، واستجابت نساؤه الطيبات لهواه، وقد كان استئذانه منهن لطفاً وأدباً وحسن عشرة، وهكذا فقد سارعن في هواه.

وحين أوى إلى بيت عائشة كانت عيونه المريضة تحمل إليها عذره وأشواقه وحنينه، وكانت تلزمه ليل نهار حتى عرفت كثيراً من معارف الطب، وكانت تمسح جبينه براحتبها وتضمه إليها في مشهد يرسم أرقى ظلال الحب والرحمة.

وحين دنت ساعة الفراق، وصار النبي الكريم موقناً من دنو أجله، وصار أهل بيته يتحدثون عن صحوة الموت في وجوه بني هاشم، كان من المتوقع أن يختار النبي الكريم رحيلاً هائلاً يليق بمنـزلته العظيمة، وكان يحقله أن يختار، كان بإمكانه مثلاً أن يقول احملوني إلى الكعبة المشرفة، إلى غار حراء، إلى مراقد شهداء أحد، إلى الروضة المشرفة، ولكن خياره كان شيئاً آخر، وما بين صحوته وغفوته، كان ينظر إلى وجه حبيبته عائشة، وعمد أن يخالط ريقه ريقها، حين نظر إلى السواك في يد أخيها عبد الرحمن، فجعل ينظر إليه وإلى عائشة، وكأنها أدركت مراده فأخذت السواك ولينته بريقها العذب، ثم دفعت به إليه، فاستاك به استياكاً شديداً، وهي ترقبه بمدامع عينها وخفق فؤادها، ثم اختار أن يكون فراقه للدنيا على صدرها الحنون، وودع الدنيا كما تقول عائشة: بين سحري ونحري!..

لقد أراد أن يرسم ألق حب فريد، بذوره في الأرض وثماره في السماء، حب يرسم للعالمين ملامح العاطفة الصادقة والحب الشريف الذي ينبغي أن ينشأ على فراش الحلال، وتسعد به الأسرة المسلمة.

لقد عاش يعتز بحبها ويؤثرها بفؤاده وقلبه وحين أصابه مرض الموت كان يشغل باله دائماً مكان السيدة عائشة في فؤاده ومصيرها من بعده، وكان يشغله هم تلك الفتاة التي تلتهب له عشقاً، فقد كان لسائر زوجاته تجارب من قبل، ولم يكن لها غيره قبل ولا بعد، واختار أن يمرض في دارها دون سائر نسائه، وحين اشتد به مرض الموت وأيقن أنه راحل، كان لا يتمالك عنها نظراً، وكان يحب لذلك الوجه البريء أن لا يغيب أبداً عن محيا فؤاده، وكأنما كان يتحسسها شفاء وبرءاً من أظافر الموت الضارية، ولا يحول عينيه عنها، لعل لوح القدر يكتب فصلاً جديدة في ملحمة الحب الخالدة التي ألهيت فؤاده.

أيقن أنه سيرحل، وكان في كل يوم يصبح أشد وهناً من ذي قبل، ولم يعد يستطيع السير الذي كان يفعله من قبل، وأصبح إذا خرج إلى المسجد يتهادى بين رجلين، وبدت الصورة تماماً واضحة بين عينيه وهو ذكي لماح، شديد الإيمان ببشريته، وعظيم اليقين بلقاء ربه.

حين دنت ساعة الفراق، وصار النبي الكريم موقناً من دنو أجله، وصار أهل بيته يتحدثون عن صحوة الموت في وجوه بني هاشم، كان من المتوقع أن يختار النبي الكريم رحيلاً هائلاً يليق بمنـزلته العظيمة، وكان يحق له أن يختار، كان بإمكانه مثلاً أن يقول احملوني إلى الكعبة المشرفة، إلى غار حراء، إلى مراقد شهداء أحد، إلى الروضة المشرفة، ولكن خياره كان شيئاً آخر، وما بين صحوته وغفوته، كان ينظر إلى وجه حبيبته عائشة، وعمد أن يخالط ريقه ريقها، حين نظر إلى السواك في يد أخيها عبد الرحمن، فجعل ينظر إليه وإلى عائشة، وكأنها أدركت مراده فأخذت السواك ولينته بريقها العذب، ثم دفعت به إليه، فاستاك به استياكاً شديداً، وهي ترقبه بمدامع عينها وخفق فؤادها.

كان يملك أن يرحل رحيلاً يليق بكماله وجلالة قدره، كان يملك أن يرحل من الكعبة أو من الروضة المشرفة أو من حراء أو من الصفا أو المروة، ولكنه فاجأ العالم بخياره**!!** لقد اختار أن يكون رحيله على صدر حبيبته**!!** قالت عائشة ما مات رسول الله إلا بين سحري ونحري، لقد أراد أن يقول للناس إنها حبيبتي في الدنيا والآخرة، وإن الأنبياء وهم يحملون هموم العالم لهم أيضاً قلوب عشاق، يعرفون سهده ووجده ولوعته، ولكنهم لا ينفقون هذه العاطفة المقدسة إلا في طهر بريء، وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وفي لفتة أخرى لصفائه وإشراقة قلبه، فإنه أيضاً أوصى أن يدفن في بيت عائشة، فالأنبياء يدفنون حيث قبضوا، وبذلك فقد شاء أن ينـزرع في فؤادها حباً وقلباً، وأن ينـزرع في دارها جسداً طيباً طاهراً تحوفه البركات والرحمات والنور.

أستأذنك أن أرويك هذه الأبيات التي نظمتها حول ساعة رحيله الرهيب يوم ودع الدنيا على صدر حبيبته عائشة:

وعندما دنا إليهِ الأجلُ　　　وصارَ يدري أنّهُ سيرحلُ

واشتدَّ فيهِ ألمُ السقامِ　　　حَرَمه من طيِّبِ المنامِ

وصارَ يرجو ربَّهُ الرفيقا — لم يذكرِ الفاروقَ والصدّيقا

لكنَّهُ تذكرَ الحبيبهْ — عائشةَ الودودةَ القريبهْ

وهكذا أرادَ أنْ يكونا — في حبِّه مُكرماً مصونا

ما اختارَ أنْ يمشي للوداعِ — ملتزماً بالرُّكنِ والمساعي

أو منْ حراءِ النُّورِ أو مُزدلفهْ — أو بالبقيعِ أو بوادي عَرفهْ

أوى إلى صدرِ شريكةِ الكفاحْ — عائشةَ يُدملُ عندها الجراحْ

من ثغرِها تناولَ الأراكا — طوَّفَهُ بفمهِ استياكا

وقالَ في حُجرتها ادفنوني — أحبُّ أنْ تظلَّ في جفوني

وفوقَ صدرها الحنونِ أملى — وقالَ أسألُ الرفيقَ الأعلى

رسمَهَا قصةَ حبٍّ طاهرهْ — تتصلُ الدُّنيا بها بالآخرهْ

حين أقرأ قدس الحب في سيرة الرسول الأعظم أشعر بالخجل أن هذه العاطفة المقدسة يتم تحويلها إلى سلعة فاجرة تباع في الظلام، تفوح منها رائحة الخيانة، حين يخرج من ملأ بيته بالغضب الأسود ليحمل وردة حمراء من أجل نزوة ساعة ، تستنزف فيها رغائب الجسد، وتنسحق آمال الروح تحت تجارة آثمة بالورود الحمراء وشقائق النعمان.

عزيزي الزوج: لا يكن فرحك في الناس وحزنك في بيتك، لا يكن كرمك في الناس وبخلك في أهل بيتك، لا تكن بسمتك للناس وعبوسك في أهل بيتك، إنه ما إن تنطفئ شموع الحب الحلال حتى توقد شموع الخطيئة.

ذكرى آمنة

لم يعرف من أمه إلا ذكرى عابرة، فقد ودعها وهو ابن أعوام خمسة وكان قد فارق من قبل أباه عبد الله من قبل ان تبصر عينيه نور الحياة.

وذات يوم اصطحب النبي الكريم عدداً من أصحابه الكرام فيهم عبد الله بن مسعود وسار جنوب المدينة حتى بلغ الأبواء، وهناك انتحى جانب الطريق وأوى إلى تلة صغيرة عليها حجارة سود فيه بقايا قبر، وخلا بنفسه عند القبر طويلاً، وسمعه الأصحاب الكرام يناجي ويدندن، ثم سالت من خده مدامع حرى، ثم بكا وعلا نحيبه حتى بكا الأصحاب لبكائه، ودنا منه رجل من أصحابه شاحب الوجه وقال: قد رأيناك تبكي بكاء لا نعرفه منك من قبل، قال نعم هذا قبر أمي وإني استأذنت الله أن أزروه فأذن لي!!
وبعض الرواة يضيف عبارة واستأذنته أن أستغفر لها فما أذن لي، ونحن نستبعد صحة هذه الرواية، ومن الواضح أن ما فيها من القسوة والجحود لا يتناسب قطعاً مع روح المحبة التي علمها رسول الله للعالم، كما أن والدي النبي الكريم كانا من أهل الفترة وكلاهما معروف بالاستقامة وحب الخير، والنبي الكريم هو من علمنا الصلاة وفي تشهدها الدعاء المعروف: رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربياني صغيرا، ومن المستحيل أن يأمرنا بالدعاء لآبائنا وأمهاتنا ثم لا يقوم هو بهذا الدعاء.

ومع أن أمه فارقته وهو في طفل في الخامسة ولكنه ظل يوصي بالأمهات، ولم يكن يتردد في بيان منازل الأم العظيمة، وصح عنه أنه أخبر بأن دعوة الأم لا ترد، وليس بينها وبين الله حجاب، وأخبر أنها حين تقوم من مخاضها فإن الله يغفر لها في تلك اللحظة كل ذنب، وأخبر بأن من قبل بين عيني أمه وجبت له الجنة، وحين سأله سائل لجوج: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك، وكأن السائل لم يعجبه الجواب فعاد يسأل ثم من؟ فأجابه مرة أخرى أمك، ثم سأل الثالثة فأجابه أمك، وفي الرابعة قال أبوك.

وفي أيامه الأخيرة تمكن من تقديم بعض الوفاء لأمه يوم الجعرانة، وفيما كان في توزيع الغنائم الكثيرة يومذاك جاءت امرأة عجوز قد وخطها الدهر، تتوكأ على عصا وقد تقوس منها ظهرها، وجعلت تخطو إليه وهي تحاول أن ترسم ابتسامة على وجهها بين قسمات قاسية حفرها الدهر على وجنتيها، فلما رآها النبي وثب إليها واعتنقها وقبلها وبسط رداءه وأجلسها عليه، فجعلت لا تأمره بشيء إلا قال لبيك يا أماه!! قال عبد الله بن جعفر فقلت لأبي يا أبت من هذه التي تأمر رسول الله وتنهاه؟ قال : ويحك يا بني!! هذه أمه حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، أرضعته في بني سعد بن بكر!! إنه وفاؤه مع الأم التي التقم ثديها عدة مرات في طفولته، فكيف يكون وفاؤه لو أدرك أمه التي كان صدرها له وعاء وثديها له سقاء ومخاضها من أجله بكاء ؟

قراءة في فتح مكة[13]
يوم السلام العالمي

[13] نشرت في صحيفة الثورة السورية 2008 /9/19

لا نبالغ في شيء إن قلنا إن يوم فتح مكة هو أولى الأيام بخيار الأمم المتحدة لإعلان يوم السلام العالمي!!
كان قرار فتح مكة قد اتخذ قبل عامين اثنين، في أعقاب فشل قريش في اقتحام المدينة يوم الخندق، وبعد انتهاء معركة الخندق بأقل من شهرين كان النبي الكريم قد قضى على بني قريظة ودك معاقل خيبر وبذلك قطع الأحلاف عن قريش وأصبح قادراً على اقتحام مكة.
ومع أنه خرج عام الحديبية منصوراً مبروراً على رأس ألف وأربعمائة مقاتل ولكنه كان حريصاً ان يدخل مكة بأمان وسلم، وحين جاءه من يحذره من خروج قريش لمواجهته نظر في الأفق وقال يا ويح قريش لقد حمشتهم الحرب!!! وماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فإن أصابوني كان الذي يريدون وإن كانت الأخرى قاتلوا وبهم قوة!!
ورغم الاستفزاز الذي تعمدته قريش ولكنه قرر أن يغير طريقه لئلا يصطدم بكتيبة الفرسان من قريش، وسلك طريقاً وعرة كثير الحجارة، ومع أنه وصل إلى الحديبية وهي على مسافة عشرين كيلومتر من مكة ولكنه لم يقتحم على مكة وانتظر تفاوضاً مع قريش وحقق الصلح معهم بشروط غريبة أقلها أن لا يسمح له باستقبال مؤمنين جدد من مكة، وأن يسمح للمرتدين مغادرة المدينة بدون قيد ولا شرط، وأن توضع الحرب عشر سنين، وأن يعود من حيث جاء بلا عمرة لئلا يتحدث العرب أن محمداً دخل مكة عنوة!!
كان ذلك ثمناً بذله من أجل السلام، وكان يأمل أن يشرح الله قلوب أهل قريش لوضع الحرب والبحث عن السلام.
وحين نقضت قريش صلح الحديبية وقتلت عدداً من حلفاء النبي الكريم من بني خزاعة في مكة، استكمل الرسول الكريم الشروط القانونية لإعلان الحرب على قريش واجتياح مكة، ولو فعل لكان ظافراً منصوراً ولحظي بتعاطف كبير من القبائل العربية التي علمت بنقض قريش لصلح الحديبية،
حين تحرك صوب مكة كان معه عشرة آلاف مقاتل، ولكنه لم يشأ أن تراق قطرة دم واحدة في يوم الفتح الأعظم!!
كان من الممكن أن يعلنها غضبة مضرية تهتك حجاب الشمس أو تمطر الدما وأن يتحرك بجيشه الكبير هادراً ثائراً حتى يطوق مكة من شعبها الأربع، وأن يفعل بها ما فعله الفاتحون من قبل، وأن تغلي كتائبه بنشيد الثورة والنصر وأن يقرع طبول المعركة ليسجل في التاريخ ملحمته الظافرة يوم الفتح الأعظم!!
لكنه لم يفعل، لقد مشى بصمت ووراءه رجاله ولم يكن قد أخبر الناس بوجهته التي يريد، وتحرك صوب الشام حتى تحير الأصحاب في مراده وغايته، وبعد مسافة طويلة طوق الجيش برجاله ثم أخبرهم بقرار الفتح الأعظم.
كان يقول اللهم عم الأخبار عن قريش حتى نفجأها في دارها، وبسرعة انساح في الصحراء يناهب الزمن حتى أطل على مكة من شعبها الأربع بجيش عرمرم لا قبل لأحد بمواجهته.
كان يريد أبا سفيان، إنه رأس قريش وزعيمها المطاع والمطلوب أن يساعد في فتح آمن لا تراق فيه الدماء ، وبخطة حكيمة تمكن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام من استدراجه إلى معسكر النبي الكريم، وهناك وقع أسيراً بلا عقد ولا عهد وكان بالإمكان تصفيته كأسير محارب لله ورسوله ولكن النبي الكريم أكرمه وعفا عنه ونادى في الناس من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!
وهكذا تحول أبو سفيان من محارب شرس إلى نسر بلا مخالب يحمل لقومه فرصة أمان وسلامة من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!
حين أتم نصره ودخل إلى الكعبة المشرفة ظافراً منصوراً وصلى في جوف الكعبة ركعتين وهدم ما فيها من نصب الجاهلية ثم خرج ليرى أعداءه الشرسين الذين حاربوه عشرين عاماً وقد

أسقط في أيديهم وأصبحوا محض مطلوبين للعدالة تشتاق إلى أعناقهم سيوف العدل والقصاص، قال لهم بلهجة صارمة: ما تظنون أني فاعل بكم؟ تحسسوا رقابهم، وتلا كل واحد منهم دليل اتهامه على جبين صاحبه، وفيه دماء سبعين شهيداً يوم أحد وأكثر من ذلك في أيام الإسلام المختلفة، ولكنهم في النهاية استجمعوا ما تبقى فيهم من أعصاب وقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم!!

وطاف بخياله عشرون عاماً من الحرب والمكر و الغدر والعناء كابدها جراء غرورهم وأوهامهم وهم يحاربونه في كل وجه، ولكنه لم يزد أن ابتسم وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

كان مدهشاً أنه لم يقل لهم لقد أطلقتكم أو عفوت عنكم أو سامحتكم!!

لم يشأ أن يبطل عفوه بآفة المن، ولم يشأ أن يريق ماء وجوههم، واختار أن يخبرهم بأنهم طلقاء أطلقهم الله ولا يد لأحد غير الله عليهم في رقابهم وأعناقهم.

ولكن اثنين من المشركين كانوا قد استحقوا سيف القصاص وهم عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وهؤلاء كانوا قد ارتكبوا جرائم قتل مباشرة لصحابة آمنين وكان من المنطقي أن يحاسبوا على ما جنته أيديهم.

وسائر الذين أعلن عنهم مطلوبين للقصاص تم العفو عنهم فيما بعد ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ووحشي بن حرب وكعب بن زهير بن أبي سلمى وآخرون كثير.

ولعل أشهر مواقف العفو والمرحمة موقف الشعر كعب بن زهير الذي شاع أنه مهدور الدم ولكم يجد سبيلاً للخلاص من ذلك إلا أن يقوم بين يدي رسول الله ، وهناك أنشد واحدة من أعذب قصائد الاسترحام، ومطلعها بانت سعاد فقلبي اليوم متبول وفيها:

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم   إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أنبئت أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول

وحين وصل إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

ألقى عليه رسول الله عباءته إشارة إلى العفو الذي كان يأمله من رسول الله.

ولعل من أجلى صور العفو والسلام أنه لما وقع أبو سفيان في الأسر، قال النبي الكريم للعباس احبسوه عند مضيق الوادي، حتى إذا جاءت كتائب الصحابة قال حامل الراية سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشاً!!! لقد كانت كلمات واقعية، ولكن رسول الله بادر من فوره حين بلغه ذلك فمضى إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس بن سعد بن عبادة وقال: اليوم يوم المرحمة.. اليوم أعز الله قريشاً..

إنه بالفعل يوم المرحمة يوم أعز الله العرب يوم الفتح الأعظم يوم فتح مكة.

الفتح مرة أخرى

قراناه درساً في السلام العالمي، ومن حقنا أن نقراه أيضاً درساً في الديمقراطية، وقيم المساواة التي أقرها الإسلام بين الناس.

لا يختلف اثنان أن سبب الفتح الأعظم كان الانتصار لخزاعة بعد أن هاجمها سفهاء قريش وقتلوا عدداً من أفرادها في ظلال الحرم، واعتبر ذلك نقضاً صريحاً لصلح الحديبية الذي وقعته قريش م النبي الكريم قبل عامين.
ولكن من هي خزاعة؟ كانت خزاعة تنصح لرسول الله مؤمنها وكافرها، لقد كانت خليطاً من الوثنيين والمسلمين، تجمع مصالحهم الموالاة للنبي الكريم، ود دخلوا في حلفه بعد يوم الحديبية كما دخلت بنو بكر في حلف قريش.
وبتعبير الدولة الحديثة فإن خزاعة وهي قبيلة عربية كبيرة انضمت إلى دولة النبي الكريم، ونالت حقوق المواطنة، ولم يكن من شرط المواطنة أن يدخل هؤلاء في الإسلام، وهي مسألة دقيقة، يخلط فيها الناس ، فالشهادتان والصلاة والصوم والزكاة والحج هي شروط دخول الجنة وليست شرط دخول الوطن، فالوطن ينبغي أن يتسع للجميع أما الجنة فلها شروطها التي يحاسب فيها الله تعالى وحده وعلى الناس الالتزام بهديه ونوره ودعوته.
حين جاء عمرو بن سالم إلى النبي الكريم يستغيث به قائلاً:
اللهم إني ناشد محمداً، حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا، ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيَّتونا بالهجير هجداً، وقتلونا ركعاً وسجداً
فانصر رعاك الله نصراً أرشدا
لم يسأله النبي الكريم آنذاك عن صلاته وصيامه ولا عن نسكه وحجه، فهذه الأمور حق الله، والله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، ولكنه فقط أكد له حقه كمواطن أن يحظى بحماية الدولة بغض النظر عن موقفه الاعتقادي أياً كان.
نعم لقد كان الاعتداء الذي قامت به قريش وبنو بكر على خزاعة اعتداء على مواطن غير مسلم، ربما يصنفه الفقهاء في الكفار، ولكن مسؤولية الدولة الإسلامية حيال مواطنيها لا تقرره مذاهبهم الاعتقادية بل تقرره حقوقهم الوطنية، على وفق القاعدة التي أكدها النبي الكريم، الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

سيظل يوم فتح مكة انصع الأدلة على أن الإسلام أسس دولة مدنية تتحقق فيها المساواة بين الناس وليس دولة ثيوقراطية كهنوتية يتمايز الناس فيها بعدد الركعات وطول السجدات، ويصنفون بناء على إعمالهم وعطائهم وليس بناء على عمائمهم أو لحاهم، بل أعلن للناس موقفه القديم أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب.

محمد في ضمير العالم[14]

[14] نشرت في جريدة إلى الأمام حزيران 2006

أما ما لم يقله الإعلام العالمي بعد هذه الإساءات المتكررة للرسول الكريم فهو مواقف العلماء والحكماء من مختلف بقاع الأرض في بيان رسالة النبي الكريم وعطائه وكفاحه وجهاده وما أنجزه للبشرية من خير وفضل.

وربما لا يتعين علينا انتظار ذلك فالإعلام الغربي عموماً مبني على الإثارة ولأجل ذلك فإنه لا يبدي اهتماماً كافياً بالقضايا الوقورة الهادئة التي لا تصلح للمانشيتات العريضة المثيرة على صفحات الجرائد الأولى.

ربما كان تفسير ذلك ما نراه في هذا الموسم بالذات من شهر المولد بحيث تزدان الشوارع والساحات كما لم يكن من قبل، وتشهد المدن السورية على سبيل المثال عرساً حقيقياً من الزينة والبهجة والمحبة، في رغبة مباشرة بالإعلان عن الوفاء للنبي الكريم وإعلان مزيد من الحب في مواجهة ما تنشره الصحافة الغربية من الإسلاموفوبيا.

كثيرون تحدثوا في الغرب عن النبي الكريم وفاء لجهاده وكفاحه، وفي قائمة طويلة يمكنك أن تقرأ لتولستوي وبرناردشو ونلسون مانديلا وغوته وتوينبي ولا مارتين وفولتير وتوينبي وغوستاف لوبون وبوشكين مواقف كثيرة في ذكر مجد النبي الكريم.

يقول تولستوي الحكيم والشاعر الروسي الكبير : " يكفي محمدا فخرا انه خلص أمة من مخالب شياطين العادات الذميمة وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وان شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة "

ويقول جوته الفيلسوف الالماني وأبرز شعرائها : " إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد وسوف لا يتقدم عليه احد، وقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان فوجدته في النبي محمد.

أما الفيلسوف البريطاني جورج برنادشو فقد تحدث بإكبار عن النبي الكريم فقال "لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً ، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ، وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد ، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة ! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي"

"إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام ديناً واضحاً قوياً ، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم"

" لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة ، ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ"

وفي الولايات المتحدة الأمريكية كتب مايكل هارت كتابه الشهير: المائة الأوائل وتحدث فيه عن أهم مائة رجل في التاريخ، في قائمة تضم علماء وخبراء وفلاسفة وأنبياء وفاتحين وأباطرة وحين قصد ترتيب الأسماء اختار داروين في المرتبة العشرين وأينشتاين في المرتبة العاشرة ولاو تسي مكتشف الورق في السابعة وجوتنبرج مخترع الطباعة في السادسة وكونفوشيوس حكيم الصين في الخامسة وبوذا حكيم الهند في الرابعة والسيد المسيح في الثالثة ونيوتن مكتشف الجاذبية عماد الفيزياء الحديثة في المرتبة الثانية، ولكنه لم يتردد أبداً في منح المرتبة الأولى بين سائر رجال التاريخ للنبي محمد ❒ ولم يكن موقفه هذا تعصباً لجماعة أو تاريخ أو ملة أو سواها وإنما كان تكريساً لحقيقة تاريخية سيدركها كل من درس بحياد تاريخ البشرية.

ولكن صيحة مايكل هارت مجرد نشاط فردي، ومع دخول العالم الأخضر فإن إمكانية إجراء استفتاء جماعي أصبحت أقرب منالاً، وهنا أود أن أضيف تجربة فريدة قام بها السيد بيل غيتس، من منا لم يسمع ببيل غيتس الذي يتربع منذ نحو عشر سنوات على قمة أغنياء العالم ومشاهيره، وهو بكل تأكيد غير متهم بالانحياز إلى القيم الروحية وهو عاكف في أسواق البزنس والتنافس المحموم فيها.

في يوم 2000/1/1 ومع دخول الألفية الجديدة كتب بيل غيتس سؤالاً واضحاً على موقعه الالكتروني msnbc وكانت صيغة السؤال: من هو أهم رجل في التاريخ؟ ووضع بيل غيتس ثلاثين اسماً ليختار القراء منها اسماً واحداً.

كان الموقع باللغة الانكليزية وفي موقع أمريكي إعلامي وتجاري، في وقت لم يكن الانترنت قد أصبح شائعاً في البلاد العربية والإسلامية مما يعني أن معظم المشاركين في زيارته والتصويت فيه كانوا من الغربيين أو الصينيين واليابانيين، ولا شك أن قلة من العرب هي التي كانت قد دخلت عالم الانترنت، فماذا كانت النتيجة؟

ظل السؤال مطروحاً على الموقع إلى غاية 2001/4/1 وبعد ستة عشر شهراً كانت النتيجة مفاجئة للمراقبين إذ اختار 84% من الملايين الذين دخلوا التصويت أن يقولوا إن أهم رجل في التاريخ هو محمد ❐

لم تقم بهذه الدراسة رابطة العالم الإسلامي ولا الأزهر الشريف ولا مركز الدراسات الإسلامية إنها بامتياز جهود أمريكية محضة، وغالب المشاركين فيها من غير العرب والمسلمين، ولكن بدون أدنى شك فإن ما أدى إليه اجتهادهم لا يختلف في شيء عما يؤدي إليه أي بحث سليم عن الحقيقة.

إن موقع بيل جيتس لا يمكن اتهامه على الإطلاق بأنه منحاز إلى العرب أو أنه متعاطف مع الأصولية الإسلامية ، وليس المطلوب هنا أن نتبادل صيحات الإكبار والإعجاب بقدر ما يتطلب هذا الإعلان وعياً بالرسالة الكبرى التي ينبغي أن ننهض بها ونحن نبحث عن موقعنا تحت الشمس .

في زيارة للأسقف الأمريكي بول شتيرن إلى دمشق مطلع التسعينات، قال: لقد تحدثت للأمريكيين مطولاً عن الرسول الكريم محمد، وقلت لهم: إننا نؤمن بأنبياء كثيرين آمن على أيديهم قرية أو قبيلة أو أسرة واحدة، وأنبياء آمن على أيديهم عشرة أشخاص أو خمسة، وأنبياء لم يؤمن على أيديهم أحد، فإذا كان محمد الذي أنقذ ملياراً ونصف مليار من عبادة الحجر إلى عبادة الله ليس بنبي، فمن هو النبي إذن؟؟؟

هناك طريقتان لتقديم الإسلام للعالم: الأولى أن تقدمه على هيئة جيوش وخيول تثير نقع غبار الأرض، وتحمل صيحات المواجهة وتستدعي للنزال والسنان، وترى في العالم عدوا مفترضاً تتعين مواجهته، ولا نحتاج إلى كبير ذكاء حتى ندرك كيف ستكون ردة فعل العالم تجاه تهديد من هذا النوع، وهناك طريقة أخرى شرحها القرآن الكريم بقوله تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي بكل تأكيد استطاعت أن تفعل الأعاجيب في عصر السيف والغزو والفتوح فما بالك بعصر الكلمة والموعظة الحسنة ووسائل الإعلام المذهلة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

إن الرصيد الكبير الذي منحنا إياه النبي الكريم على المستوى الحضاري والذي يتبادل رجال الفكر تقريره والثناء عليه اليوم ، يضعنا مباشرة أمام المسؤولية التاريخية في رعاية هذا التراث الخالد الذي انبثق مع فجر الرسالة .

هذا العالم مليء بالنوايا الطيبة، والشرفاء في الأرض من كل ملة ودين ولون يدركون تماماً ما الذي أنجزه النبي الكريم في الأرض، وما معنى رسالته الكبيرة: الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.
هناك رسالة أخرى للمولد النبوي وهي اكتشاف أصدقائنا في العالم، فهل نمتلك البرنامج المناسب لاكتشاف هذا الرصيد الهائل من الحب لرسول الله في العالم؟ وتوظيفه بالتالي لصناعة الإخاء الإنساني وإصلاح ما بين العرب وبين العالم؟

خارج السرب[15]
دفاعاً عن رسول الله!!

جاهدت أن أفهم بصعوبة لماذا يقدم فنان دانمركي على إهانة العالم الإسلامي بالمجان من خلال إطلاق رسوم مسيئة للنبي الكريم على صفحات مجلة دانمركية، فيسمم الأجواء مجدداً بين أوروبا والعرب ويعيد الناس إلى أجواء الحروب الصليبية التي قامت في الواقع على أساس رسوم مسيئة نشرها بطرس الناسك في أوروبا على أساس أن المسلمين يرسمونها على قبر المسيح وهنا اشتعلت أوروبا بالغضب وتحركت صوب الشرق الإسلامي أربع عشرة حملة صليبية أريقت فيها أرواح الملايين وطبعت تاريخ العصور الوسطى بالدم والحديد والنار والظلام.
بالطبع لم يوافق المؤرخ الإسلامي العربي آنذاك على التسمية الأوروبية لهذه الحروب واختار الاسم الصحيح لها وهو حروب الفرنجة، ولم يصل إلى أسماع القراء العرب اسم الحروب الصليبية إلا بعد أن تمت ترجمة دراسات المستشرقين حول تاريخ العصور الوسطى.
لم يسأل أحد أين هو قبر المسيح؟ فالمسلمون لا يؤمنون أصلاً بقبر للمسيح، وهم ينزهونه عن الصلب ويؤمنون أنه رفع إلى السماء عزيزاً كريماً، ومع ذلك فقد كان لا بد من إثارة مشاعر الناس لحرب مجنونة لا تبقي ولا تذر، ومع ذلك فقد اشتعلت نار الحرب وأكلت الأخضر واليابس، وطبعت تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بالدم والكراهية.
ولكن لماذا الدانمرك؟؟

---

[15] نشرت في جريدة الثورة 2006/2/10

الدانمرك بلد بارد هادئ وادع يسكن على أعتاب العملاق الاسكوتلاندي، لا تزيد مساحته عن ربع سوريا نحو (43ألف كم2) ولكنه يشارك الناس على موائدهم بقوة في أكثر من مائة وأربعين بلداً في العالم عبر نستلة ولورباك، وتقدم أبقاره على شاشات التلفزة سعيدة مدللة، ترتدي أفخر الماركات الأوروبية وتنام على الفرش الوثيرة، وعادة ما يخطف أنظار الناس في الأولمبياد العالمي بلباسه الأحمر والمهارات الفردية والروح الجماعية التي تؤديها ماكينة الفريق الدانماركي لكرة القدم.

وفي العام الماضي حظيت الدانمرك بثناء خاص في البلاد العربية والإسلامية عندما منعت دخول البضائع الإسرائيلية إلى أراضيها واعتبر ذلك نصرة لقضايا العرب، ولكن ما الذي يدفع اليوم باتجاه القطيعة والتوتر؟

العالم الإسلامي يغلي بالغيظ للموقف البارد الذي اتخذته حكومة الدانمارك عندما اعتبرت أن إقدام صحيفة على الإساءة المتعمدة للنبي الكريم محمد محض تسلية شخصية تندرج في إطار حرية الرأي والتعبير، ويعلم كل عاقل أنها تتسبب مباشرة في إهانة أكثر من مليار ونصف من الناس فيهم 200 ألف دانمركي مسلم ومئات الآلاف من المنصفين الذين كتبوا أو قرؤوا بحيدة وإنصاف رسالة النبي الكريم محمد .

بدأت القصة عندما أراد مؤلف كتب أطفال دانماركي أن يضع على غلاف كتابه صورة للرسول ❐ ورفض رسام الكاريكاتير المكلف بإعداد الغلاف رسم هذه الصورة، فقرر المؤلف إقامة مسابقة لرسم الرسول، حيث تقدم لها عدد من رسامي الكاريكاتير أرسلوا اثني عشرة صورة مسيئة للرسول الكريم في صور تهدف إلى إبراز علاقة بين الإسلام والإرهاب، وقامت المجلة بنشرها تباعاً، ولم تفلح مطالبات المسلمين في الدانمرك بوقف نشر الصور أو الإدعاء القضائي عليها ثم صدر فيما بعد أمر قضائي يقضي برفض تسجيل الادعاء في المحاكم الدانمركية على أساس أن ذلك يخل بحرية التعبير المقررة دستورياً!!

كان نيوتن يقول إن الإنسان بنى كثيراً من الجدران وقليلاً من الجسور، وعلى قلة الجسور التي بناها الإنسان فإنه مضى إلى هدم هذه الجسور التي صنعها الحكماء في العالم، وحماها مفكرون أحرار من بلاده مع الكتلة الروحية الأكبر في العالم اليوم، وهي العالم الإسلامي.

الصحيفة الدانمركية المغمورة وجدت طريقاً قذراً للشهرة، يصبح به اسمها متداولاً خارج البلاد، على طريقة سلمان رشدي، ذلك أن من الناس من يحب الشهرة ولو بالصفع على القفا، ويحب أن يرى صورته في الجرائد ولو في صفحة الجنايات مطمش العينين، ويحب القنزعة ولو على الخازوق، وهو بالضبط ما قام به محرر جيولاندز بوستن، وأجبر العالم على أن يذكر اسم صحيفته ولو ملعوناً مذموماً مخذولاً!!

وبنفس المشاعر اللئيمة الباحثة عن الشهرة قفزت الصور التافهة المسيئة لتجد مكاناً على صفحات كثيرة في ألمانيا وفرنسا وبولندا بل والمغرب والأردن، وأظن أنك حين تقرأ مقالي هذا فستكون الصور المسيئة في أكثر من عشرين بلداً في العالم، وستنال جميع هذه الصحف نصيباً من الشهرة (واللعن والمقت) وبالتالي بيع النسخ الكاسدة، ويغريها بالإقدام على أعمال أكثر شراً ولؤماً بحق الإخاء الإنساني.

ما يجب تأكيده هنا هو أن الإساءة هنا إنما كانت ضد مشاعر البشر ويجب التأكيد أن كل هذه الإساءات لن تنال من مكانته صلى الله عليه وسلم وأنها محض إضافة لما أخبر به القرآن الكريم من كلام أهل الحقد والغي الذين قالوا إنما هو شاعر وساحر وكاهن ومجنون، ومع تصاعد الإسلاموفوبيا هذه الأيام فإن إضافة تهمة إرهابي إلى هذا السيل الذي

واجهه به سدنة الظلام لن يغير شيئاً من نور الحقيقة فمنطق الرحمة الذي جاء بها النبي الكريم ستظل روح رسالته مهما صرف الحاقدون أنظار العالم عن الحقيقة الخالدة لهذه الرسالة.

شعرت بالمرارة من إقدام الصحيفة الاسكندنافية على هذه الخطوة اللئيمة الهادفة إلى قطع الجسور بين الشرق والغرب واستنفار العالم الإسلامي إلى ما يشبه حالة الحرب مع الحضارة الغربية بكل جوانبها، ولكنني وجدت نفسي أشد حزناً عندما رأيت تسارع الأحداث باتجاه مزيد من الصدام بين الإسلام والغرب، وما تبع ذلك من قطع للعلاقات وهجوم على السفارات بهذا المنطق الهمجي الذي لا يمت بصلة إلى نبي التسامح والرحمة محمد ❐ .

لماذا تفرض علينا الصحيفة العابثة شكل الرد الذي نتبناه في مواجهتنا لهذا التهور، ولم لا يكون الإمام الشافعي رائداً لحراكنا في مواجهة هذا الطيش:

ولقد أمر على اللئيم يسبني   فمضيت ثمة قلت لا يعنيني

لقد كان الشافعي بصيراً بالرغبة الجامحة لدى شاري الخصومات بطبل الشهرة:

يخاطبني السفيه بكل قبح   فأكره أن أكون له مجيباً

يزيد سفاهة فأزيد حلماً   كعود زاده الإحراق طيباً

ربما كانت أجمل كلمة سمعتها في سياق الأحداث المتلاحقة هي ما قاله السيد زكريا مير علم في لقاء لجنة العمل الإسلامي المسيحي المشترك: لو كان الرسول الكريم ❐ حياً بيننا اليوم وهو في أوج نصره وملاحمه وبلغه أن فناناً في الدانمرك رسم كاريكاتيراً مسيئاً لشخصه الكريم، فماذا سيصنع؟ هل سيسير جيشاً كجيش تبوك لمواجهة هذه الإساءة؟ أم سيستنفر العرب والعجم في شن حرب على الثقافة الغربية، أم سيعقد العصائب الحمراء لرجال الموت ليفجروا أنفسهم في سفارات الغرب؟؟ أعتقد أنه ببساطة لن يقوم بأي شيء من ذلك ولكنه سيقول إحدى كلمتين: اذهبوا فأنتم الطلقاء، أو يقول اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون!!

إنني أعلم تماماً أنني هنا أيضاً أغرد خارج السرب، وهي تهمة أسمعها كل يوم، ولكنني بكل أمانة لا أشعر أن السرب الذي يتحركون فيه سيصل إلى الحديقة التي زرعتها أرض النبوة بالمحبة والتسامح، ورتلتها الآيات البينات: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون.

الطب النبوي... معرفة وعلم، وليس عجائب وأسرار[16]

محمد حبش

لم أكن أتصور أننا سندخل القرن الحادي والعشرين في ظل ازدهار الشعوذة والتنجيم والسحر الذي تخصص له اليوم قنوات فضائية بحالها، تحترف صناعة الأسرار وتتاجر بأوهام الناس تبيع وتشتري، ويدفع العربي المسكين دم قلبه على شكل اتصالات ومتابعات حتى يتيسر له الحصول على الوهم الموعود، واستقبال نفخات ونفحات خاصة من حضرة صاحب القناة الذي يطل بطلعته الصبوحة من الصباح إلى المساء على الشاشة الكئيبة.

ومع أن غاية المقال واضحة ولكنني سأزيد في الإيضاح فالمقصود هنا هو تلك المحاولات المستمرة لاكتشاف العجائب (المذهلة) في الطب القديم، وما استودع من الأسرار في حبة البركة والباذنجان والإثمد والحجامة وغيرها، وإلقاء صفة القداسة على هذا اللون من التداوي على أساس أنه أكبر إنجازات الرسالة المعصومة التي بشر بها الرسول الكريم، وبالتالي تقديم علاجات وعقاقير لعلاج الصداع والإسهال والأورام والشوزفرانيا والقرحات المعدية والإنتانية باسم الشريعة.

بداية لا يمكن تجاوز حقيقة هامة في تاريخ الإسلام وهي اهتمام الرسول الكريم بالصحة والعافية، إنها جانب من مسؤوليته في رعاية الأمة والحرص عليها، وهي صورة لاهتمامه وتحصيله في معرفة النافع والضار من الأغذية والأمزجة الطبيعية والمركبة.

[16] نشرت في صحيفة الثورة السورية2009/2/13

ولكن الأمة ابتليت في جملة ما ابتليت به من تقديس الماضي بتحنيط تاريخها وخبراتها والوقوف عند لحظة من الماضي، وهو سلوك رفضه النبي الكريم عندما واجه الجاهلية القرشية التي كانت تزعم الانتماء إلى الماضي المقدس: ملة إبراهيم، وكانت ترفع راية إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، مع أن القرآن أوضح أن إبراهيم نفسه نادى قومه: أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون.

الطب النبوي ليس أسراراً مقدسة جاء بها فريق طبي ملائكي، يحمل عقاقير سماوية، مذيلة بحجاب معصوم، إنه بكل بساطة جزء من كفاح الإنسان في سبيل المعرفة، وجانب من مسؤولية النبي الكريم في حماية المجتمع وتأمين الصحة والعافية بالخبرات المتاحة، وهي معرفة تم تطويرها وتجديدها عدة مرات في حياة النبي الكريم نفسه، واستمر تطويرها بعد رحيله على يد خبرات طبية كبيرة من المسلمين والمسيحيين، وقدمت معرفة طبية مذهلة في زمانها، وقد تطورت على يد مدارس طبية شهيرة كآل يوحنا بن ماسويه وآل قسطا بن لوقا وآل حنين بن إسحق وآل الرازي وآل ابن زهر، ولكنها وللأسف تجمدت فيما بعد عند لحظة من انطفاء العقل وانصرفت تبحث خلفاً، وذهبنا نلتمس الإعجاز في خبر الغابرين بدل أن نبني كما كانت أوائلنا تبني ونصنع مثلما صنعوا.

النبي الكريم حجم واحتجم، ولكن الحجامة التي مارسها الرسول لم تكن إلا طباً عربياً شائعاً، ثبت بالتجربة أنه ينشط الدورة الدموية ويساعد الإنسان على التخلص من بعض فضلاته، ومن هنا فقد مارسها الرسول، وانتفع بها، وليس في الحجامة أسرار مقدسة أو عجائب ميتافيزيقية، ولا هي في صلب رسالته، ومن غير المنطقي اليوم أن نسلط الضوء على عجائب الحجامة ونختصر العلم النبوي والطب النبوي بهذا العلاج الشعبي العربي القديم، بحيث يقال إن الغرب أنشأ المدن الطبية في كليفلاند وهامبورغ وليفربول، وطور التصوير الطبقي والمحوري والرنيم المغناطيسي وتمكن من زرع الكبد والقلب والعين والأعضاء، وفتت الحصى بالليزر، ونحن حققنا الحجامة!!

بدون أدنى شك فإن النبي الكريم لو أدرك زماننا فإنه لن يقر أبداً ما يمارسه الحلاقون والحائكون والطباخون وفاضو الأشغال في القرن الحادي والعشرين حيث يحملون طناجرهم وكاساتهم وشناتيهم ويهرولون مع مطلع الربيع من دار إلى دار لإحياء السنة النبوية بكاسات الهوا!!

الطب النبوي من وجهة نظري ليس الحجامة والكي والتداوي بحبة البركة ودبس الرمان والدهن بالعسل، فهذه الأنواع من الطب الشعبي كانت أفضل ما عرفه العرب في الحجاز في القرن السابع الميلادي، ولكن العالم اكتسب بعد ذلك خبرات عظيمة، وأسهم فيها علماء عرب ومسلمون وتطور الأداء الطبي خلال القرون تطوراً مذهلاً، وتمكن علماء الإسلام ابن سينا والرازي وابن زهر وابن النفيس من استلام طب أبقراط وجالينوس وتطوير الطب النبوي للرسول الكريم وأسلموه بكفاءة واقتدار إلى روجر بيكون ولويس باستور وليستر وتمكنوا من استخراج عقار العافية من سم الأفعى القاتل، وانطلق الطب في ازدهار متسارع وتمكن من رسم الخريطة الجينية وبشر بعالم جديد يمكن فيه استئصال أوبئة بحالها عبر فهم الخريطة الجينية للإنسان، وبالتالي عبر حملات طبية وقائية منظمة للقضاء على الوباء.

السواك سنة نبوية كريمة وهي تعبير عن رغبة النبي الكريم بتربية المسلم على النظافة والطهارة، وكان يأمر بالسواك عند كل وضوء وعند كل صلاة وعند كل لقاء للناس، ولا شك أن ذلك يعكس حرص الإسلام على النظافة والطهارة وصحة الفم.
ولكن السواك ليس إلا وسيلة للطهارة والنظافة، ولم يكن أمر النبي الكريم بالاستياك بسبب عروق مقدسة في عود الأراك، ولا بسبب ارتباط غرقدي بين الأراك والأمة المنصورة، لقد كانت مسألة بحث عن النظافة والطهارة وكان السواك هو الآلة المتوفرة آنذاك للتطهير والتعقيم.
وحين تتوفر وسائل حديثة من التعقيم والتطهير فمن المنطقي أن يأمر النبي الكريم بهذا الجديد، وليس لدي أدنى شك بأن النبي الكريم سيختار الفرشاة المعقمة بالفلورايد والمطيبة بنكهة التفاح لأنها ببساطة أكثر طهراً وأقل تعرضاً للأوبئة ولأنها حصيلة علم وتجربة وحكمة.

أخرج الإمام مالك بن أنس عن جذامة بنت وهب الأسدية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت قد هممت أن انهى عن الغيلة ثم علمت أن فارس والروم يصنعونه ولا يضرهم فافعلوه. والغيلة هي الجماع وقت الرضاع.
كان بالإمكان أن يمر نص كهذا دون تعليق، ولكنني أعتقد أن هذا النص النبوي يلهمنا منطق الرسول في التعاطي مع المعرفة.
وبعيداً عن شرح أشهب لموطأ مالك وشرح ابن حجر لصحيح البخاري فإنني سأستعير عبارات معاصرة لشرح هذا الخبر النبوي الحكيم:
خلال متابعة النبي الكريم للواقع الصحي في المدينة قدمت إليه تقارير من بعض مراقبي الصحة بأن هناك شكوكاً حول اختلاط ماء الرجل بحليب المرأة المرضع، ومن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى مضاعفات سيئة في حليب الأطفال، وذيلت هذه التقارير باقتراح من وزير الصحة في الدولة المحمدية بمنع الغيلة.
أمر النبي الكريم بصفته قائداً زمنياً ورئيساً للدولة الناشئة بإعداد مشروع قانون لمنع الغيلة حفاظاً على الصحة الإنجابية.
ولكن مستشاره لشؤون الصحة اقترح استقدام خبرات أجنبية أكثر متابعة لملف الغيلة، ولدى دراسة ما انتهوا إليه ثبت بالدليل القاطع أن هذا الأمر شائع لدى الأمم المتحضرة آنذاك الروم والفرس، وأنه لايؤدي إلى مضاعفات سيئة، ولا باس من اعتماده، وأن المحاذير التي خشيها الخبراء المحليون موهومة ولا داعي لاعتبارها.
بكل شجاعة يقف النبي الكريم أمام فريقه الإداري ويقول للعالم: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ولكنني علمت أن فارس والروم يصنعونه ولا يضرهم، وبناء على الخبرة لعلمية الموضوعية، فإنني آمر بوقف مشروع القانون إياه لانتفاء مبرراته.

بدون أدنى مبالغة فإن ثقافة كهذه لا بد أن تشجع كل تجديد علمي ونشاط معرفي، ولا بد أن تكون مع الجديد والمفيد من المعارف العلمية والطبية، وأن توفر للناس ما يحتاجونه من الحكمة والمعرفة.
السياق الطبيعي للتوجيه النبوي الخالد: يا عباد الله تداووا فإن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء يقتضي متابعة كل خبرة جديدة في الطب لتحقيق ذلك، وإلا فأين تجد في كتب الطب النبوي علاج الشوزفرانيا والباركنسون والسفلس والسيدا والشيخوخة المبكرة وترقق العظام وتليف الكبد والصمة الرئوية واضطرابات التخثر وتناذر غود باستور والالتهاب الغضروفي وداء تايتز والفتوق الشرسوفية والفتق السبيجلي وآلاف الأمراض والأوبئة التي لم تكن موصوفة أصلاً في عصر النبوة؟ وهل يمكن التماس أجوبة على ذلك من خلال ما دونه الأقدمون من الروايات؟

بكل احترام تابعت ما كتبه عبد اللطيف البغدادي وعمر بن خضر العطوفي وأبو نعيم الأصفهاني وابن قيم الجوزية حول الطب النبوي وهو ما جمعه أخيراً السيوطي في كتابه المنهل الروي في الطب النبوي، ولكنني أقول لك بثقة ويقين إن الطب النبوي يلتمس اليوم في معهد باستور في باريس والمدن الطبية في اليابان ومخابر جامعة بون أكثر مما يلتمس في هذه الكتب الكريمة، التي هي تدوين جامد للحظة من التجربة الإنسانية الطامحة حقها التأمل والاعتبار وليس التقليد والجمود.
ولا أشك أبداً لو أن الرسول الكريم كان بيننا اليوم لأمر بدراسة مناهج جامعة هارفارد الطبية وليس كتب العطوفي والأصفهاني، ولأرسل الحارث بن كلدة وزيد بن ثابت إلى جامعات كمبردج وأكسفورد وليس إلى مضارب بني شيبان وبطاح بني ظبيان.

ميلاد رسول الله.....
قراءة في المشروع السياسي للرسول الكريم[17]

لم يتحدث السلف من الصحابة ولا التابعين عن المولد النبوي ولا يمكنك أن تجد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية شيئاً عن المولد النبوي، ولو كان المطلوب أن نكتفي بما ورد في الكتاب والسنة لكان إحياء المولد النبوي بالفعل بدعة خاطئة غير مقبولة، ولكن العقل الإسلامي منذ بداية الرشد هدي إلى ابتكار مواسم هادفة ضرورية اتخذها منابر ليعيد للأجيال الآتية سيرة السابقين ويجدد كفاحهم.

وبعيداً عن خطاب المساجد في مديح رسول الله، والحديث عن شمائله ومناقبه وخصائصه فإن هذا المقال ماض للحديث عن الرسول الاكرم في رسالته الخالدة قائداً تحررياً قاد بنفسه أول كفاح من أجل وحدة العرب واستقلال سوريا.

في غاره كان يتأمل في حرية أمته ومستقبلها، كيف يسوغ أن نقبل باحتلال رومي لأرض مصر والشام العربية، واحتلال فارسي لأرض الرافدين، لقد تحدث إلى الناس في بصرى وإربد

[17] نشرت في صحيفة الثورة السورية2009/3/6

وعمان والبتراء باللسان العربي، كل شيء في بلاد الشام عربي اللسان والعادات والقبائل والشعر والمشاعر والتاريخ والآباء والحنين والنوق والخيل كل شيء هناك عربي بلهجة آرامية، إلا حكامها فقد كانوا روماً بيزنطيين!!
الشام أرض زنوبيا (زينب بنت عمرو بن الظرب) وأرض الغساسنة والكلدانيين والإيبلائيين والفينيقيين من العرب كانت محكومة من قبل نسطاس بن نسطورس وهو محتل رومي لا يمت بشيء من الصلة لأرض الشام الشريف.
لا شك أنه سمع بكفاح زنوبيا أول كفاح عربي في مواجهة روما، لقد بنت حضارتها في قلب الصحراء وخلقت المعجزة الشاهدة على الدهر، وأعلنت وحدة سوريا مستقلة حرة، ثم وصلت جيوشها إلى مصر تعلن أول دولة عربية تضم سوريا ومصر، ولكن الجيوش الرومانية لم تبطئ في اقتحام الصحراء ووصل الامبراطور يوليان نفسه إلى تدمر ولم يهدأ لروما بال حتى قضت على طموح سيدةالصحراء وأعلنت نهاية الحلم العربي في الاستقلال والحرية!
ومع أن الرسول الكريم كان رجل هداية وعبادة ولكنه لم يكتم مشروعه السياسي في التحرر من ربقة الاستعمار الرومي والفارسي وقال بوضوح: إذا مات كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده!!

مذ كان يافعاً كانت تطوف بخاطره آمال كبار لقد وصل إلى بصرى الشام في غمار قوافل التجارة وكان يتأمل في ذلك كله ويقول كيف يمكن لأمة ترتبط اقتصادياً من اليمن إلى الشام بإيلاف واحد أن تكون في قبضة مستعمر غاز لا يرحم؟ ولماذا يجب على أهل الشام طاعة القيصر في بيزنطة؟ ولماذا يرغم نهر بردى أن يعبر القنوات الرومانية ليسقي المزارع التي تجبى ثمراتها إلى القسطنطينية؟ ولماذا يجب أن يكون نهر النيل العظيم شرياناً للرومان الذين ما زالوا يأكلون خيرات مصر منذ اقترن أنطونيو بكليوباترة، ومنذ بدأ المصريون نتيجة خرافة غادرة بإلقاء خيرة صباياهم في النيل كل عام من اجل استرضاء الرب الأبله الذي لا يفجر ماء النيل إلا إذا خطف واحدة من صبايا مصر الحسناوات!! وهو أرق استمر حتى بعد الفتح الإسلامي وحين كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بشأن ذلك يستأذنه في تنفيذ رغبة أهل مصر وإلقاء فتاة في النيل استرضاء للرب واستجداء لماء النيل كتب له عمر غاضباً ويلك: وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت!

المشروع السياسي للرسول الكريم كان من وجهة نظري واضحاً تماما، تحرير بلاده ومن ثم بناء علاقات صحيحة ومسؤولة مع أمم الجوار من فرس وكرد ورم وحبش وهند، لقد بدا أولاً بتوحيد جزيرة العرب، ثم أطلق رجاله إلى بلاد العرب التاريخية التي تمتد تقليديا من الكويت إلى موريتانيا، هي أراض لم يحصل أن زارها النبي الكريم من قبل، ولم تكن لديه بالطبع خرائط لجغرافيا أرض العرب ولكنه كان يدرك تماماً أن هناك كفاحاً قدمه الآباء السوريون من فينيقيين وكلدان وبابليين على شواطئ المتوسط من أنطاكية إلى الاسكندرية إلى قرطاج كان يحمل إلى تلك الشواطئ المترامية الأطراف شوق الصحراء العارم، وحديثاً دافئاً عن بيت المقدس وعن الكعبة بيوت الله الطاهرة التي بناها إبراهيم جد العرب.

رجاله الذين ساروا فيما بعد على الشاطئ الشمالي لأفريقيا من عمرو بن العاص إلى عقبة بن نافع لم يكونوا في سبيل خلق ديموغرافيا جديدة، بل كانوا في سبيل إحياء ما تصرم من عناء الآباء المنزرعين منذ فجر التاريخ في تلك الشواطئ، والذين بنوا الشواطئ الأفريقية وانقطعت

وشائجهم مع أرض العرب وتبربرت ألسنتهم وتأمزغت وقد انقطع بهم وبأبنائهم السبيل للوصال مع أرض الأنبياء.

كان رجاله يعرفون تماماً أين ينبغي أن تمضي رسالة الحرية، فوق أرضهم العربية التي عانت طويلاً من الاحتلال والقهر، وفي إشارة واضحة للبوابة الشرقية قال عمر: وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم!! وفي الجانب الأعلى من وطنه العربي كان يقول اتركوا الترك ما تركوكم فإنه لا يسلب أمتي ملكها وما خولها الله إلا بنو قنطوراء! ومن جهة الجنوب فقد أرسل علياً ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ولم يكن ليقبل اليمن السعيد إلا بكامل ترابه من باب المندب إلى بحر العرب، أما المنذر بن ساوى فقد رسم لدولة الإسلام كامل الشاطئ الشرقي من أرض العرب من عمان إلى الكويت.

أرجو أن لا أبدو هنا سمجاً أستخدم خطاباً خشبياً يربط منطق النبوات بعصر القوميات، ولكنه في الواقع صورة متقدمة من الكفاح إياه الذي يكابده اليوم أهلنا في العراق وأهلنا في فلسطين للخلاص من الاحتلال البغيض وبناء دولة الحرية بعد رحيل الاستبداد.

لا أستطيع أن أزعم بالطبع أن النبي الكريم رسم خريطة العرب من الكويت إلى موريتانيا ومن أنطاكية إلى أكسوم إلى القرن الأفريقي، وأدخل فيها الطنب الكبرى والطنب الصغرى وأبو موسى وكيليكيا وعربستان ولواء اسكندرون، وكتب تحتها أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة!! ولكن قراءة دقيقة لتاريخ الفتوح يجعلك تشعر بالدهشة حيث ترسمت خطى الفاتحين نفس الخطى التي سلكها من قبل في الشمال السوريون الفينيقيون الأوائل، وفي الجنوب العرب العدنانية والقحطانية، وأنجزوا خلال الخلافة الراشدة تحديداً خلاص البلاد العربية من الاستعمار الرومي والروماني والفارسي وبدء فجر جديد للأمة العربية.

قد يكون في شهادتي نوع من التجريح بسبب انتمائي إليه، ولكنني سأختار شاهدي على رواية هذه الحقائق من كلام واحد من أوفى أبناء السيد المسيح الشاعر القروي رشيد سليم الخوري الذي كتب في ضمير التاريخ:

عيد البرية عيد المولد النبوي   في المشرقين له والمغربين دوي
يا فاتح الأرض ميداناً لدولته   صارت بلادك ميداناً لكل قوي
يا قوم هذا مسيحي يذكركم   لن يوقظ الشرق إلا حبنا الأخوي
فإن أتيتم رسول الله تكرمة   فبلغوه سلام الشاعر القروي

هل نسيء إلى رسالته إذا قلنا إنه كان يحمل هماً قومياً وطنياً من اجل بناء بلده؟ بعض الأصدقاء يظنون أن أي كلام عن رسالة النبي الوطنية أو القومية أو عبقريته وموهبته تقتضي ضرورة أنه كان خارج سياق النبوة، وكأن النبوة لا تنزل على العباقرة والموهوبين، وكأن رسالته في نشر الإيمان تتعارض مع دوره في خدمة المجتمع وبناء الحياة.

المشروع السياسي للنبي الأكرم باختصار تحرير أرض العرب سلماً أو حرباً، ثم بناء علاقات صحيحة مع الأمم، وتوجيه رسالة الهدى والرحمة للعالمين.

أنتم أعلم بأمور دنياكم[18]

أراد أن يقول للعالم إن عهد الخوارق قد انتهى، وإن العالم بدأ عصراً جديداً من المعرفة والعلم، وإن الإنسان هو سيد قدره الله على الأرض.

والقصة بتمامها أوردها معظم رواة الأخبار من الأئمة البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وتمام الحكاية أن الرسول الكريم حين وصل المدينة رآهم يؤبرون النخل، وتأبير النخل في الواقع أمر غريب وعجيب، كانوا يأخذون من الجذع عوداً فيعقدونه على شكل أسوارة ثم يعلقونه على شجرة أخرى، فتحمل الشجرة ما شاء الله من الثمار، والفكرة اليوم يعرفها خبراء الزراعة على أنها مساعدة لغبار الطلع للوصول من الشجرة الذكر إلى الشجرة الأنثى ليتم التلقيح، ولكنها لم تكن واضحة آنذاك، وحين سألهم النبي عما يفعلونه من أمر التأبير قالوا وجدنا عليه آباءنا ولا ندري كيف يحمل، وقال لهم النبي الكريم ما أظن أن هذا سيغني عنكم شيئاً، وفي رواية أنه قال: لعلكم لو لم تفعلوا لكان خيراً، وانتقلت كلمة النبي الكريم بين المزارعين من أهل المدينة ومباشرة تركوا ذلك وتواتر بينهم أنها إذن من عادات الجاهلية التي نهى عنها الإسلام.

ولكن الثمر لم يحمل في ذلك العام، وترددوا في إخبار النبي بما حدث، ولكن النبي الكريم كان يتابع في الواقع أمر الزراعة في المدينة وسألهم ببراءة: ما الأمر؟ وأين الثمار على أغصان أشجاركم؟ كان الجواب يا رسول الله إنك نهيتنا عن التأبير وقد جاء الحمل شيصاً**!!**

كانت كارثة على المحاصيل الزراعية ومن الواضح أن ذلك حصل نتيجة ترك التأبير الذي هو عادة الزراع وعرفهم.

كان في قدرة النبي الكريم أن يقول للناس صدق الله وكذبت أشجاركم**!!** كان قادراً أن يقول لهم لا تبالوا بهذا إنه من كيد الشيطان وظنونكم، أو على حد قول مشايخ الصوفية : اللبن أسود**!!**

ولكن النبي الكريم وقف بكل شجاعة أمام الناس وقال لهم كلمات من ذهب: «أيها الناس إذا أمرتكم بالشيء من أمر دينكم فهو مني وأنا قلته وإن أمرتكم بالشيء من أمر دنياكم فإنما أظن ظناً، أنتم أعلم بأمور دنياكم**!!**».

لقد كان إعلاناً شجاعاً عن انتهاء عصر الغيب وابتداء عصر الشهود، وانتهاء عصر الخوارق وبدء عصر العقل، ومن الآن فصاعداً فإن عليكم أن تعتمدوا على الخبرات الموضوعية الأرضية لشأن الحياة وليس على التماس أجوبة السماء لمشكلات الأرض.

---

[18] نشرت في جريدة الثورة السورية2009/3/13

أخبر القرآن أن بني إسرائيل عاشوا في كنف المعجزات، كان إيمانهم معجزة وطعامهم معجزة وشرابهم معجزة ونجاتهم معجزة وركوبهم البحر معجزة، ورأوا براهين النبوة في يد موسى وفي العصا والثعبان والأفعى والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات حتى صاروا يطلبون من ربهم بقل الأرض وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها، ولكنهم على ذلك كله لم تجف أثوابهم من ماء البحر حتى قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة!! قال إنكم قوم تجهلون.

وحين أمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة راحوا يطالبون بكل تقوى وورع: سل ربك: ما هي؟ وماعمرها؟ وما لونها؟ وكانوا ينتظرون في ذلك كله أجوبة من السماء في أسوأ صورة لارتكاس الإنسان إلى الحضيض حتى إنه عاجز عن المبادرة بذبح بقرة إلا بعد أن يحظى ببيانات تفصيلية من السماء في شأن هذه البقرة المسكينة، وبدلاً من أن يشتغل موسى في لقاء ربه بعظائم الأمور، وتحالف الأمم وبناء الحياة وانتقال الحضارات جعل يسأل عن لون البقرة وشكلها وأوصافها، حتى ذبحوها وما كادوا يفعلون!!

كان أمراً مؤلماً أن يرتكس الإنسان إلى هذا الحد من الغباء والبلاهة والبلادة، وأن تصبح علاقته بمجد السماء ووصاله بالله سبحانه لمجرد بيان أوصاف البقر!.

كان لا بد للنبي الكريم أن يعبر بالعالم من هذه الأوهام الضيقة والاتكالية الغبية إلى نور العقل وإعلان مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وإعلان قاعدة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

لو قدر للإنسان أن يبقى بهذه القناعة الغيبية لكان علينا اليوم أن نسأل الأنبياء عن أمور حياتنا كلها، وأن نتوقف فيما لا نص فيه.

وإذا أردنا صناعة سيارة فإن علينا أن نقول لنبي زماننا: سل ربك ما لونها وما شكلها؟ وكم عدد مقاعدها، وكم طاقة رديديراتها، وكم قوة أحصنتها، وأين يوضع الريداتير وكيف يستخدم البريميير، وما هي افضل الطبونات وأسطع الأستوبات وأسرع الدواليب، وهل الخير أن يتحرك الكرسي بالهيدروليك أو بالميكانيك، وهل الأبرك أن تفتح النوافذ بالأيدي أم بالدارات..

وإذا أردنا أن نعمر موقعاً على الحاسوب فعلينا أن نسأل نبي زماننا كم ميغا يمنح المسلم، وكم بوصة تكون شاشة اللابتوب وهل يصح فتح الإيميل بالموبايل وكم عدد رامات الحاسوب الشخصي وكم عدد رامات الحاسوب المحمول، وما هي أفضل الماسنجرات وكم سعة الهاردات...

هكذا فعل اليهود مع موسى وهكذا فعلوا أيضاً مع محمد وجاؤوه يسألونه مسائلهم وسألوه عن فتية هلكوا في الدهر فروا من بطش الأباطرة وعن رجل طاف المشرق والمغرب وعن الروح.

كانت ثلاثة أسئلة وضعها اليهود شرطاً لمعرفة صدق هذا النبي وصحة نبوته، وكان من اليسير على الله سبحانه أن ينزل عليهم الأجوبة التي سألوها وتقوم الحجة والبرهان عليهم أمام الناس خاصة أنهم تحدوا بذلك أمام الناس، وبالفعل فقد قبل الرسول التحدي وقال أجيبكم غداً، وراح يسأل ربه إنجاز ذلك، والتمس منه أخبار ما سألوه، وظل يلتمس بيان السماء في ذلك أياماً وأسابيع ولكن السماء لم تسعفه ببيان، وظل حائراً في جوابه للقوم، وفتر عنه الوحي فلم يجد جواباً يدفع به تحدي القوم!!

وبعد أسابيع نزلت الآيات بينات في هذا الأمر، ولكنها لم تجب عن أسئلة بني إسرائيل وظل الجدل مستمراً من هو ذو القرنين؟ وكم عدد الفتية؟ أما الروح فقد جاء الجواب صريحاً بلا رتوش: ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

أرادت الشريعة أن تقول للناس: انتهى عهد المعرفة الذي يطلب في السماء، وبدأ عصر المعرفة في الأرض، وعلى الإنسان أن يطور معارفه بوسائل العلم وليس برجم الغيب وبخور السواحر وظنون الكهنة، وأن السماء قد ملئت حرساً شديداً وشهباً، وقال الذين كانوا يدعون المعرفة بقرار السماء وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد شهاباً رصداً.

سألوه عن تبع وعن ذي القرنين وعن مآل المحدود في الآخرة وبعد إلحاحهم بالسؤال قال النبي الشجاع بكل صراحة: «لا أدري أتبع كان نبياً أم لا، ولا أدري ذو القرنين كان نبياً أم لا ، ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا! وفي القرآن وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون».

لا أدري .....!!إنه كلام النبوة!! ولاعجب!! فنصف العلم لا أدري، ومن عجز عن لا أدري أصيبت مقاتله، وإذا لم نسلم بأننا لا ندري فإن حركة المعرفة والبحث ستتوقف على الفور أو ستمضي إلى ضلال مبين!!

لا أدري ..!!ليست هذه نقطة ضعف في النبوة أبداً إنها من وجهة نظري نقطة قوة، إنه الموقف المناسب تماماً للنبي الذي يقول للعالم: «إنما أنا بشر مثلكم، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»، موقف شجاع للنبي الذي قال للعالم: «وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً».

إنه الموقف الصحيح لنبي يقول له الله تعالى: وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ويأمره أن يقول كل يوم: رب زدني علماً!

إنه الموقف الصحيح لنبي ينقل لك على صفحات قرآنه خطاب الله: «ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى».

جاء ليخرج الناس من ضباب الخوارق إلى ضياء العقل، ومن سراب الغيب إلى عالم الشهود، وليقول للإنسان أنت سيد القدر في هذا العالم، أعلنها أبو العلاء بدون تحفظ:

أيها الغر إن خصصت بعقل   فاسألنه فكل عقل نبي.

وغير بعيد عن صراحة المعري أعاد إقبال شرح الفكرة في رباعية حكيمة:

يظهر البدر آخر الليل فرداً   أصفر الوجه في السماء وحيداً

كل نور أخذته من غريب   سوف تخبو به رويداً رويداً

قلبك الشمس فاقبس النور   منه كل ما ترتجيه نفسك عندك

كل شيء سواك أنت سراب   شهد الله أنك الحق وحدك

النبي الديمقراطي

قد يبدو صادماً أن تستخدم عنواناً كهذا في وقت لا تزال كثير من المؤسسات الإسلامية لا تؤمن بالديمقراطية، وترى فيها انحرافاً عن نهج النبوة، وهو المعنى الذي دفع طلائع الإسلام السياسي في الخمسينات إلى رجم الديمقراطية بالحجارة واتهام البرلمانات بأنها أوثان القرن العشرين والدعوة إلى وجوب البراءة منها ومن تبعاتها التشريعية التي تم توصيفها بأنها مناوأة مباشرة للشرع.
ومع أن هذه الأصوات خفتت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي ولكنها اليوم تحظى بجمهور كبير بعد المغامرات التي أشعلها بوش في الشرق الأوسط تحت شعار الديمقراطية، الأمر الذي رسم صورة سوداء للآمال الديمقراطية، وبالتالي أساء غاية الإساءة للحوار الإسلامي مع الغرب وعزز فرص التطرف والراديكالية ووفر لهم بيئة خصبة لنمو فكر التعصب والانغلاق وبالتالي أعاد المشروع الديمقراطي عدة عقود إلى الوراء في الشرق الأوسط.
وبعيدا عن الراهن السياسي فإن هذه المقالات معنية بإثبات حقيقة واحدة وهي أن الرسول الكريم قدم للعرب مشروعاً ديمقراطياً متنوراً سواء في التشريع أو في الإدارة، وهي حقيقة نجتهد هنا لإثبات أنها لا تتناقض أبداً مع الوحي المعصوم بل تشد أزره وتحقق رسالته وتبلغ به غايته، وتستلهم الأدوات التي منحنا إياها النص نفسه في بعث العقل واستخدام الخبرة البشرية للوصول إلى معرفة السنن الكونية التي عرفها الإنسان بعد عناء طويل، وسلم بها بيقين، وهي السنن التي يحق لنا أن نستخدمها في التشريع لإخراج ما هو خير للعباد والبلاد.
أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

لقد عاش حياته في خدمة الأمة ولم يجمع ثروة طائلة، يأكل كما يأكل العبد وينام كما ينام العبد، وفي وثيقته الأولى التي كتبها دستوراً لدولة المدينة الناشئة يظهر احترام المواطنة على أساس من المساواة بغض النظر عن الدين والنسب، وحين رحل إلى الله لم يكن في وصيته فرض حكم ثيوقراطي على الناس وإنما ترك الأمر شورى وتم تداول السلطة بعده في الخلافة الراشدة على وجه جيد من الشورى بغض النظر عن الأحساب والأنساب والثروات، قبل أن تتحول الخلافة إلى ملك عضوض.

إنها محاولة لقراءة الرسول الكريم رجل كفاح ديمقراطي، آمن بالعدالة وكفر بالاستبداد، وعمل للحرية وقارع الظلم، وأنجز المساواة في ظروف المجتمع الجاهلي، وعمل بإخلاص وكفاءة لبناء مجتمع العدالة والتنمية في الأرض.

ومع أن هذه الدراسة لا تقدم بياناً إحصائياً لأيام الكفاح الديمقراطي في حياة الرسول ولكنها تقدم نماذج من كفاحه والتزامه الديمقراطي، ولكنها تقدم طرفا مما يجب دراسته من السيرة النبوية مما يشكل برأيي مواقف ديمقراطية ممتازة قدمها رسول الله ولكنها لم تحظ بما تستحق من الدراسة والبحث:

في الشورى:

موقفه من خوض غزوة بدر حين لم يقرر الخوض في هذه الحرب إلا بعد أن استمع رأي أصحابه من أهل المدينة خاصة نظراً لالتزامهم بالدفاع عن الرسول في المدينة ولا بد من فهم رأيهم والاستماع إليه قبل اتخاذ قرار الحرب، وهذا يؤسس لحق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة.
موقفه في أسارى بدر حين لم يختر أن يبت في أمرهم إلا بعد شورى بين أصحابه، وكان رأي فريق عمر قتل الأسارى ورأي فريق أبي بكر العفو عن الأسارى وكانت نتيجة الشورى هي اختيار حصيلة رأي الجمهور، وهو إطلاق الأسرى بشرط دفع الفدية، وهو ما يحقق طرفاً من العفو الذي طالب به فريق أبي بكر وطرفاً من العقوبة التي طالب بها عمر.

موقفه من اختيار مكان المعركة يوم بدر فقد رجع عن رأيه وقبل رأي الحباب بن المنذر حين ظهر له وللصحابة أن رأي الحباب كان أحكم وأنسب للأمة

موقفه في يوم أحد حين قرر البقاء في المدينة والدفاع عنها من الداخل ولكنه فيما بعد ترك رأيه واستجاب لرأي الأغلبية الذين كانوا يرون أن الأفضل هو الخروج من المدينة ومواجهة العدو خارجها، وقد استجاب لرأيهم وترك رأيه وقد شعر الصحابة بذلك ودخلوا عليه وقالوا يا رسول الله لعلنا أكرهناك ؟ فإن شئت فالزم رأيك.. لا نعصك أبداً !! ولكن الرسول الكريم لم يرجع إلى رأيه وظل ملتزماً بخيار الجماعة، وقد أغضب موقفه هذا عبد الله بن أبي سلول الذي كان يرى رأي الرسول ويرفض الخروج من المدينة، وهكذا فإنه رفض تغيير رأيه إلى خيار الأكثرية وخرج من المسجد مغضبا وقال: أطاع الصبيان وعصاني!! والله لا أدري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!!

وبعد أن تلقى أمر الله تعالى: وشاورهم في الأمر لم يكن رسول الله ليترك الشورى في شأن من شؤون حياته، وقد وشف القرآن الكريم واقع مجتمع الرسول الكريم بقوله: والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم.

في المساواة:
كان دستور المدينة أول وثيقة مساواة في جزيرة العرب تحقق المواطنة بغض النظر عن النسب والعرق والدين الذي كان العرب يؤدونه للمسألة برمتها، وكان في نص الميثاق أن محمداً ويهود بني عوف أمة واحدة من دون الناس لهم معاقلهم وربعتهم التي كانوا يتعاقلون بها.

وبذلك فإن هذا النص قطع الامتياز الديني الذي هو أس الدولة الثيوقراطية، حيث كان الناس على دين ملوكهم وفي أحسن الأحوال فإن المخالف في الدين مواطن من الدرجة الثانية، وهو ما ترفضه القواعد الإسلامية رفضاً شديداً، وهنا يقوم الناس أمام مسؤولية مشتركة متساوية

يحكمها منطق القرآن الكريم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وبالمنطق إياه يمكن قراءة نصوص القرآن الكريم التي تحدثت عن الآخر بحقوق كاملة في ظلال الشريعة وهو ما أقره الفقهاء في إطار السياسة الشرعية بل إن هذه الدراسة ماضية لتقرير أنه هو حكم الله في الدنيا وفي الآخرة:

إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآية نزلت مرة ثانية في سورة المائدة بنفس الصيغة إياها مع تغيير طفيف في ترتيب الطوائف.
وفي سورة آل عمران في سياق حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب: وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين.
وفي النص القرآني: ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً.

في خطابه في حجة الوداع كان يرسم الملامح النهائية للإسلام في رسالته نحو المساواة أيها الناس إن أباكم واحد وإن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.
قال لأبي ذر الغفاري حين سب بلالاًً: أعيرته بأمه؟؟ أعيرته بأمه؟؟ إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم.. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ملا لا يطيقون فإذا كلفتموهم فأعينوهم.

في حرية الرأي والتعبير
دعا إلى احترام حرية التعبير ونهى أن يكره الناس على ما لا يعتقدون ونص القرآن الكريم واضح جلي في ذلك: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.
وفي سبب نزول الآية أن ناسا من أهل المدينة كانوا قد أرسلوا أبناءهم إلى أحبار اليهود يتعلمون منهم الدين فتهودوا فلما جاء رسول الله إلى المدينة أمرهم آباؤهم أن يتركوا اليهودية ويتبعوا الرسول فامتنع بعضهم فأراد الآباء أن يكرهوهم على الإسلام فأنزل الله تعالى: لا إكراه في الدين.

وفي شاهد ذي دلالة فإن القرآن الكريم أشار أن الله استمع إلى حوار إبليس مع أنه أعلن أنه سيناضل ضد إرادة الله وقال ولأضلنهم ولأغوينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، وفي مكان آخر قال: فبما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، وقال: ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين.
ومع ذلك كله فإن الله لم يشأ أن يقمع إبليس وأن يمنعه من حقه في الاختيار بل مكنه من فعل ما يريد وحين سأله أنظرني إلى يوم يبعثون، استجاب له بقوله: إنك من المنظرين، وقال: واستفزز

من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

وخلال التاريخ الإسلامي ظلت الكنائس المسيحية والكنس اليهودية تقوم بممارسة دورها بحرية داخل المجتمع الإسلامي وظلت كتب التثليث والأقانيم محفوظة في الكنائس ولم يسجل خلال التاريخ أي اعتداء عليها على الرغم من مخالفتها الصريحة والواضحة لقيم العقيدة الإسلامية في التوحيد.
بل إن كتب الصابئة والدهرية والملاحدة ترجمت إلى العربية على يد أمهر علماء اللغات، ودفع ثمن ترجمتها وزنها ذهباً ومن بيت مال المسلمين على الرغم من أنها كانت في العمق تتناقض تناقضاً تاماً مع قيم الإسلام في التوحيد.

في حقوق الإنسان

نص القرآن الكريم على تكريم الإنسان بقوله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم، وفي سياق هذا التكريم أمر الله ملائكته بالسجود لآدم فسجد الملائكة كلهم أجمعون وهو سجود تسخير وخدمة وليس سجود عبادة ، ومن الواضح أن هذا التكريم لبني آدم كان قبل النبوة وقبل الدين، ولم يكن بسبب تميز آدم أو سعة علمه أو كثرة عبادته، لقد كان تكريماً للإنسان لمحض أنه إنسان وشرح للسياق الذي اختار الإسلام أن يضع فيه الإنسان خليفة لله في الأرض.
ومن أجل ذلك فإن الإسلام حدد ببرنامج طويل الأجل طريقاً للخلاص من الرق والعبودية وتحقيق حرية الإنسان وكرامته، وذلك عبر الدعوة إلى الإعتاق وبيان أحجر المعتقين، وما قام به بنفسه من إعتاق الناس والإحسان إليهم، ثم فرض نظماً متعددة للخلاص التدريجي من الرق كنظام المكاتبة والتدبير وأم الولد وهي نظم معروفة في كتب الفقه تهدف إلى شيء واحد وهو منح الإنسان حريته، كما اعتبر الإعتاق كفارةمفضلة للخلاص من كثير من المخالفات الشرعية كاليمين والظهار وكفارة القتل الخطأ وفداء النذر وغير ذلك.
وبحسبك إشارة إلى ذلك أنك لا تجد في كتب الفقه كلها باباً واحداً للرق، بل إن سائر كتب الفقه تختار عنوان: كتاب العتق، في إشارة واضحة إلى تشوف الإسلام للإعتاق.

في حقوق المرأة

لا شك أن النبي الكريم كان نصيراً لقضايا المرأة، وقد دافع عنها بحكمة وبصيرة، وأعلن مساواتها التامة بالرجال وقال: النساء شقائق الرجال، وأخبر القرآن الكريم بأن النساء والرجال بعضهم أولياء بعض وهذه الولاية هي أعلى درجات المساواة وهي بيان جلي أنه لا يجوز أن ينتقض من حقها من شيء، قال تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.
وبحسبك أن تعلم أن المرأة التي كانت من قبل جزءاً من متاع الرجل وميراثه قد أصبحت في الإسلام فقيهة وعالمة وخطيبة وشاعرة، وقادت الجيوش ومارست المعارضة السياسية، ووليت أدق المسؤوليات العامة.
بل إن القرآن الكريم منح المرأة في أكثر من مناسبة شرف الوحي ومخاطبة السماء، حتى نص ابن حزم وابن حجر والقرطبي أن عدداً من النساء بلغن رتبة النبوة وهي أرقى رتب السمو البشري.
وقد كتبت كتاباً خاصاً من قبل عن حقوق المرأة في الإسلام تحت عنوان المرأة بين الشريعة والحياة، وقد طبع الكتاب عدة طبعات، وأثار جدلاً واسعاً.

وتتركز فكرة الكتاب في بيان موقف الرسول الكريم كرائد تحرري في قضايا المرأة، دافع عنها وانتصر لها، وحقق لها الضمان التشريعي لحقوقها على وجه كريم .

في حقوق الطفل

ذاق النبي الكريم مرارة اليتم وعرف عناء الطفولة المعذبة، وكان له مواقف هامة في الانتصار للطفولة البريئة، وقال: أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وقال خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يكرم وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يهان، وحرم التبني وأجاز الكفالة وشجع عليها، حماية للطفل أن يكون ضحية الكذب والتغرير.

وكان هو نفسه من يلاعب الأطفال ويدافع عنهم ويعرف حوائجهم، وقد منع من استغلالهم جسدياً ومعنوياً، ومنع من إجبارهم على اعتناق ما لا يريدون، وفي حق الأطفال في اختيار اعتقادهم نزلت الآية الكريمة لا إكراه في الدين.

وقد كان الرعيل الأول حول النبي الكريم في معظمه من الأطفال الذين لم يبلغوا الحادية والعشرين بل إن كثيراً منهم لم يبلغ الثامنة عشرة، وقد سطر التاريخ أخبارهم ومواقفهم وموقف النبي الكريم من توفير الظروف التي تمنحهم حق الحياة الكريمة وتمنع كافة أشكال استغلالهم وقهرهم.

وعلى سبيل الإشارة فإن أسامة بن زيد وهو طفل لما يبلغ الثامنة عشرة كان على رأس جيش عظيم من جيوش الفتح فيه أبو بكر وعمر!!

وقد أصدرت كتاباً خاصاً بعنوان أطفالنا أكبادنا، تحدثت فيه عن موقف الإسلام من اتفاقية حقوق الطفل التي أقرتها الأمم المتحدة، وطالبت بالانضمام إليها بدون تحفظ حماية لأطفالنا وتأكيداً لدور الإسلام في رعاية الطفولة والأمومة.

في احترام الخبرة العلمية :

دخل النبي المدينة فرآهم يؤبرون النخل والتأبير هو لون من تلقيح النخل غير المباشر يعتمد على غبار الطلع في تلقيح الأشجار، ولم يكن لهذا التأبير أثر ظاهر في الشجرة الأمر الذي دفع النبي الكريم لإنكار ما يصنعون وقد حسبه من تأويلات الجاهلية وانتظار تأثير الجن، ولكن النخل في ذلك العام لم يحمل شيئاً، وحين عرف الأمر خضع للحق وقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم فإنما أظن ظناً.

وفي شاهد آخر شكا الناس للنبي الكريم الغيلة وهي الجماع وقت الرضاع، وأخبره بعضهم أن الغيلة قد تضر بالأبناء فهم أن يمنع الناس من ذلك ولكنه استعان بخبرات متعددة وعلم أن لا أثر للغيلة على الرضاع لأن جهاز الإرضاع لا يرتبط بالجهاز التناسلي، فقال في شجاعة نادرة: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ولكن علمت أن فارس والروم يصنعونه ولا يضرهم فافعلوه.

وهنا فإن موقفه جلي في وجوب الاستجابة للخبرة العلمية والخضوع لها ولو كانت الأفكار المسبقة تقول بخلاف ذلك.

وفي شاهد آخر أعلن النبي الكريم تحريم الصيد وقطع الشجر في أرض الحرم وكان بيانه صريحاً حازماً على نسق قول الله تعالى إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولكنه ما إن أنجز تلاوة قراره الصارم حتى طالعه العباس بوجوب استثناء الإذخر وهو نبات من شوك لا بد منه للإبل ولحاجة الناس، ولم يطل تردد الرسول الكريم فقد أقر مباشرة رأي العباس وأعلن رجوعه عن إطلاق

موقفه بشأن تحريم قطع النبات كله.

في الرجوع عن الخطأ والخضوع للصواب:
جاء القرآن الكريم صريحاً في شرح الطبيعة البشرية للرسول الكريم، وقطع أي احتمال للجدل في ناسوته وبشريته، والمتأمل في القرآن الكريم سيجد ذلك مسطوراً فيه على أتم غاية من الوضوح والبيان.
في موقفه من اقتراحات قومه للتخلي عن قيم المساواة في الإسلام والاستجابة لطلبهم في فرز الناس إلى طبقتين أغنياء وفقراء جاء القرآن الكريم واضحاً : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين.
وحين هم النبي الكريم أن يستجيب لطلبهم رجاء تألف قلوبهم، جاء القرآن شديدا صارما: وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً!! ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً!! إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً
وجاء القرآن الكريم في آيات أخرى يدعو النبي الكريم للاستغفار من ذنبه والعودة عن الخطأ إذا ما تبين له الصواب: فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار.

أما الرسول نفسه فقد أعلن ذلك على الملأ وقال: إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني.
ولا شك أن حلف الرجل على شيء لا يكون إلا على خلفية يقينه بما يحلف فيه، ولكنه على ذلك لم يتردد في العودة عن يمينه والرجوع عن رأيه إذا ظهر له أن الثواب في تركه.

في تقرير احترام القضاء والخضوع للقانون:
وفي سنة النبي الكريم كثير من النصوص التي تدلك بوضوح أن النبي لم يستخدم أبداً امتيازات سماوية للحكم بين الناس وإنما كان يتصرف وفق العدل والقانون :

أيها الناس إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها.
وكذلك نشير هنا إلى موقفه الشجاع الذي كرره مراراً بقوله: إذا قضيت لكم بالشيء من أمر دينكم فخذوه وإن قضيت لكم بشيء من أمر دنياكم فإنما أظن ظناً، أنتم أعلم بأمور دنياكم.
وأحاديث السيرة النبوية كثيرة في هذا المعنى وحين كان يرسل أصحابه بأوامر واضحة كان يقول لهم: إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فلا تظلموا الناس في شيء، وكان علي بن أبي طالب قد سأله يوماً يا رسول الله أحدنا ترسله في أمر أيكون كالسكة المحماة أم إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟؟ قال: بل إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

ورفض مراراً أن يتكلم باسم الرب فيما لم يفوض فيه ونزل القرآن الكريم بعتابه عشرات المرات، وبإمكانك أن تتأمل في هذه الآيات الكريمة التي نزلت في إطار معاتبة النبي الكريم على تسرعه في القضاء ضد يهودي لمصلحة رجل من المسلمين اسمه طعمة بن أبيرق وكان

طعمة هذا قد سرق متاعاً من بعض الأنصار فلما أوشك أن يفتضح نقل المسروق إلى رجل يهودي اسمه زيد بن السمين وحينما ادعى أصحاب المتاع المسروق على طعمة بن أبيرق تنصل من ذلك ودفع بالتحقيق إلى بيت زيد بن السمين حيث ضبطت عنده المواد المسروقة، وبدافع من الدفاع عن المؤمنين جرى بسرعة اتهام اليهودي زيد بن السمين بالسرقة بقرينة وجود المتاع المسروق ولم تتح له فرصة تقديم البينة والشهود على براءته، وهنا ينزل القرآن شديداً في معاتبة النبي الكريم:

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً، واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفيهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله عليماً حكيماً، هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً؟

فإذا كان النبي الكريم وهو مصدر التشريع يصدر عنه الحكم مراراً ثم يراجع فيه ، ويقر عشرات المرات بأن غير ما قضى به كان أحكم، وفي سياق قريب من ذلك نذكر مسألة تحول القبلة مرتين ومسألة أسارى بدر وندمه على ما قضاه بشأنهم بعد عتب القرآن عليه، وإذنه للمتخلفين ثم مراجعة القرآن الكريم له، وإباحته لحوم الحمر الأهلية ثم نهيه عنها، وإباحته للمتعة ثم نهيه عنها، ومنعه من ادخار لحوم الأضاحي ثم إباحته لها، وفتواه بالمفارقة في مسألة الظهار ثم رجوعه عن ذلك وإقراره الكفارة بعد مجادلة المرأة بالحجة والبرهان، وفتواه بالحد على ثابت بن قيس حين قذف امرأته بشريك بن سحماء ثم رجوعه عن ذلك، وتشريع الملاعنة في قاذف الزوجة خصوصاً، وإعداده الصلح مع غطفان وهوازن يوم حنين ثم اتباعه لرأي السعدين في الكف عن المصالحة، وقراره لزوم المدينة لمواجهة جيش أحد ثم تغيير رأيه فيما بعد وخروجه إلى جبل أحد، وهي مواقف تعد بالعشرات إن لم نقل بالمئات وكانت ترسم في النهاية استجابة واضحة لمقتضى الحال سواء أكان ظهوراً لحقيقة علمية أو استجلاء رأي شعبي أو مصلحة عليا للأمة.

ولا أعتقد أن ثمة تعارضاًُ بين التعبير الأصولي (النسخ أو طرو النازل) وبين التعبير العصري الاستجابة للسياق الديمقراطي، بجامع أن كلاً من الأمرين في المآل هو عدول عن حكم شرعي مبرم إلى فيه مصلحة الأمة والشعب، وعدم صحة الاعتذار بالمقدس والمبرم في مواجهة مصالح الأمة الحقيقية.

ديمقراطية الرسول والإسلام السياسي:

ليس من شرط هذه الدراسة أن نمضي إلى بحث أصولي فقهي ولكن ما أردت تعزيزه هنا هو أن الشرط الديمقراطي لا يتناقض من وجهة نظري مع حضور النص الديني، ولا يستلزم الإقرار بالديمقراطية في سن القوانين ومراقبتها أي حاجة لرفض النص المقدس أو استدباره.

ولعل أوفى دراسة في هذا السبيل هي ما قدمه العلامة علي عبد الرازق في كتابه الشهير الإسلام وأصول الحكم الذي أعاد كتابة الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية في ضوء المنجز الديمقراطي العالمي، وقسم الحضارة الحديثة في إصلاح علاقة الحاكم بالمحكوم.
وهكذا فإن دعوة الجمهور الكريم لإدراك إسلامية المنطق الديمقراطي في الحكم وأنه ليس متعارضاً مع الشريعة يقع على رأس أولويات الخطاب السياسي الديني لحركة التغيير الاجتماعي.

وهنا ببساطة فإنني ضد قيام أحزاب ثيوقراطية تنتج الاصطفاف الديني في المجتمع، وتسلب السلطة من الشعب إلى الإكليروس، أو الملالي، وهنا فإنني أدفع باتجاه قيام أحزاب ذات مرجعية إسلامية، لا تحتكر اسم الإسلام وتقبل صراحة بالشرط الديمقراطي من تداول السلطة وتكافؤ المواطنين وتساويهم أمام القانون ومنع تغول الإكليروس وتقرير حق الأمة في التشريع وفق مصالحها الكبرى.

إن قيام الأحزاب الدينية بالنطق باسم الرب في الشأن السياسي أمر بالغ التأثير في الحياة العامة وسيؤدي إلى مضاعفات خطيرة خاصة في بلد تسكنه طوائف كثيرة تختلف مرجعياتها الدينية والطائفية ويجاوره بلدان جاران يصطليان بنيران الفتنة الطائفية التي قادتهم إلى حرب أهلية كلفت مئات الآلاف من القتلى.

وبالجملة فمرحباً بالأحزاب الملتزمة لحماية الفضيلة والأخلاق والعفاف والعدالة والتنمية، ولكن ليس من المفيد في شيء بروز كتل سياسية تحمل اسم الإسلام الأمر الذي سيجعل الآخرين مباشرة في مواجهة غير مرغوبة مع الإسلام في حين أنهم في الحقيقة غنما يواجهون برامج سياسية لكتل محددة من الناس.

ولكن هذه الرغبة والقناعة لدي لا يتعين فرضها على الناس، وإنما هي برنامج ثقافي يتعين علينا أن نقنع به الناس وحين نخفق في ذلك ولا يتفهم الشعب عدالة مطلبنا فإن الاستجابة هنا لمطالب الشعب يبدو أكثر ديمقراطية من استئثارنا بالتفكير والتقرير نيابة عنه، ومن المطلوب حينئذ إتاحة الفرصة لهذا للون من التدافع السياسي والقبول بنتائجه تحت شرط الديمقراطية الواضح من القبول بالمساواة وتداول السلطة.

وفي إشارة ذات دلالة نهى النبي أصحابه بوضوح أن يتحدثوا باسم الرب وفي حديث حازم قال لأحد أصحابه وهو يسيره في مهمة قتالية وهو بريدة بن الحصيب امض باسم الله وإن أرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا ولكن أنزلهم على حكم نفسك.

ولا شك أن هذا الذي أوردناه هو محض شواهد عابرة، وردت على سبيل الاستئناس وإنني آمل أن تساعدني الأيام لتقديم دراسة استقصائية إحصائية تتناول سائر ما ورد عن الرسول الكريم من مواقف ديمقراطية لحماية الإنسان والأوطان.

وبعد...

فهذه قطاف من دراسات شتى، كنت قد نشرتها في صحف متعددة خلال السنوات الماضية، وهي تحمل هدفاً واحداً، التأمل في مواقف النبي الأكرم في كفاحه وسهره وسهده، في نجاحاته وعذاباته، في قوله وعمله، في آماله ومواعده، ما كان يأمله وما كان يخشاه، وقراءة حياته رجل كفاح وزند، يقود جهاده بسنن الله، على منطق العقل والبرهان وليس على مركب الخوارق والعجائب، يحاور بحجته وبرهانه، أمام الله وأمام الإنسان، يكافح من أجل عالم جديد، عالم تسود فيه قيم المرحمة، ويحتكم الناس إلى منطق العدل والإحسان.

إنها محاولة للاقتراب من كفاح محمد، رائداً وقائداً ومعلماً، نرقبه على قواعد السنن وليس على عجائب الغيب، يحمل لواء الحرية والديمقراطية ويكافح من أجل الإنسان، يتحدث باسم معاناته، ولا يعلم الغيب ولا يقول إنه ملك ولا يسألهم عليه أجراً إلا المودة في القربى، قال لهم بصراحة وشجاعة لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلمالغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا غلا نذير وبشير لقوم يؤمنون، وفي غمرة كفاحه الصاخب، يبتسم ويقول إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد.

نبي بلا خوارق، هكذا يمكن أن نفهم كفاحه الكبير في ضياء السنن، شرحه بأبلغ عبارة جلال الدين الرومي:

قالت الأنجم للبدر المنيف   أي سر ذلك الوجه الوضي؟

قال إني بشر من حمأ   مثلكم لكنما يوحى إلي

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم

أيها الشاهد ما للمستقى صار سقيا من دم مر وسم
إن ماء المزن ترياق الربيع ربما يقتل حبطاً أو يلم

الـفـهـرس

- فتح مكة يوم السلام العالمي
- الفتح مرة أخرى
- أفتان أنت يا معاذ
- محمد في ضمير العالم
- خارج السرب دفاعا عن رسول الله
- الطب النبوي معرفة وعلم
- قراءة في المشروع السياسي
- أنتم أعلم بأمور دنياكم
- النبي الديمقراطي